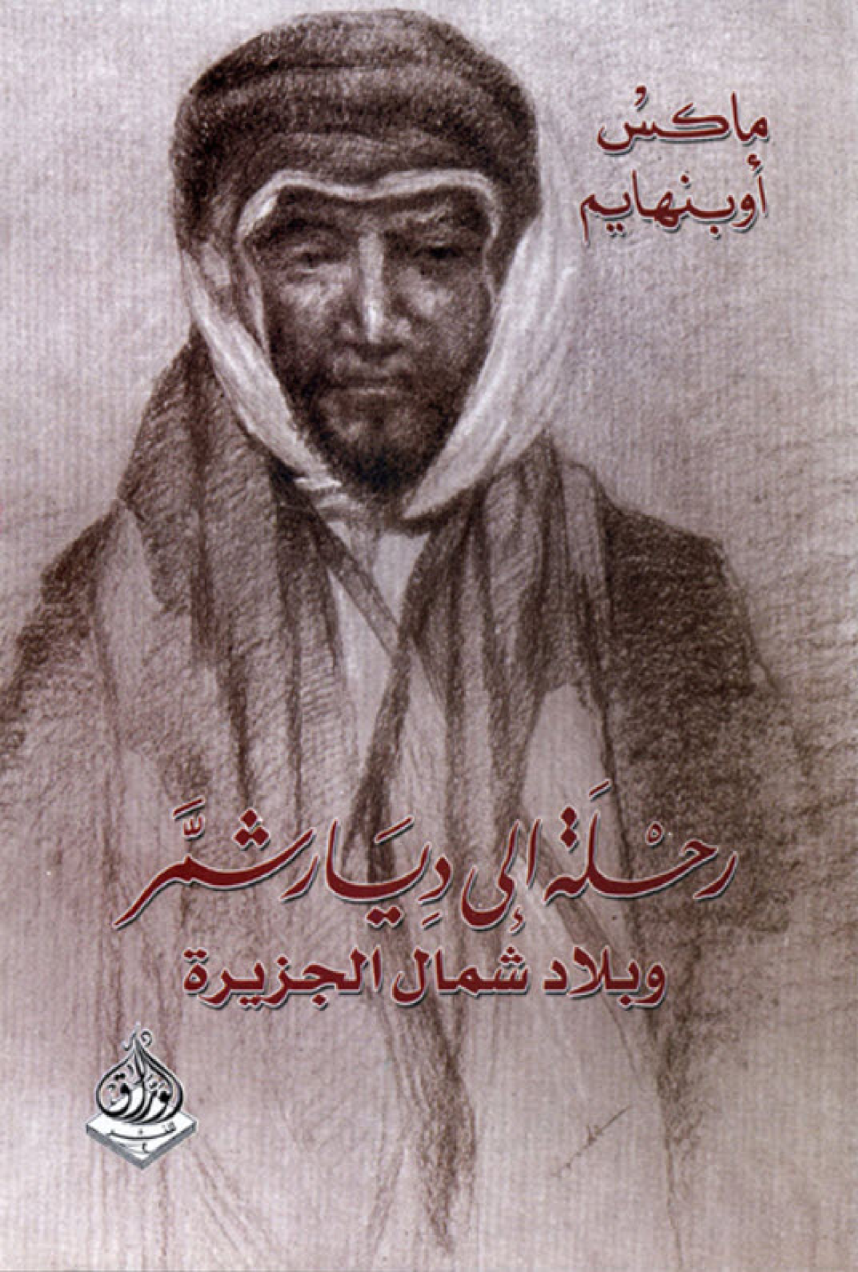

ماكسُ
أوبنهايم
رِحْلَة إلى دِيَارِ شَمَّرَ
وبلاد شمال الجزيرة

رحلة إلى ديار شمّر

وبلاد شمال الجزيرة

ماكس فون أوبنهايم

رحلة إلى دِيار شمَّر

وبلاد شمال الجزيرة



* اسم الكتاب : رحلة الى ديار شمّر وبلاد شمال الجزيرة

* المؤلف : ماكس فون أوبنهايم .

* الطبعة الأولى لدار الورّاق للنشر : 2007.

* الطبعة الثانية لدار الورّاق للنشر: 2009.

* تصميم الغلاف : جبران مصطفى .

* صورة الغلاف: رسم صورة الشيخ فارس ـ شيخ شمّر بريشة المؤلف .

* ملاحظة: هذا الكتاب هو قسم من كتاب «من البحر المتوسط الى الخليج» الجزء الثاني.

This book (Travel in Land of Schummer and North of AlJazireh) is a chapter of the "Vom Mittelmeer Zum Persischen Golf" (volume 2). Berline 1900

By Max Von Oppenheim

First edition in Arabic by Alwarrak Publishing 2007

Second edition in Arabic by Alwarrak Publishing 2009

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
26 Eastfields Road
London W3 0AD - UK
Fax: 0044 208-7232775
Tel: 0044 208-7232775
warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

بيت الوراق

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ تلفون: ٠٠٩٦٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢ - ٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

مقدمة الناشر

إن أهمية كتابنا هذا من البحر المتوسط إلى الخليج ناتج عن دقة المعلومات المفصلة التي سجّلها المؤلف خلال رحلته هذه والبحوث التي قام بها جعلت من هذا الكتاب بمكان مرموق لذا قامت الحكومة البريطانية بترجمته إلى اللغة الإنكليزية ومن ثم وزعته على الضباط البريطانيين عند قيام بريطانيا في احتلال المنطقة العربية في الحرب العالمية الأولى.

نظراً إلى تنوّع وشموليّة المواضيع ودقتها التي بحثها المؤلف في كتابه من البحر المتوسط إلى الخليج، فقد اختارت شركتنا شركة الوراق لبعض من هذه البحوث التي يحتويها هذا الكتاب ونشرها بشكل مستقل، فمن جملة هذه البحوث التي تمّ اختيارها كتاب (الدروز) وكتابنا هذا (رحلة إلى ديار شمّر وقبائل شمال الجزيرة).

إنها متعة جميلة أن تتبّع خطوات أوبنهايم عند زيارة ديار شمّر

وبعض قبائل شمال الجزيرة، وضرورة خاصة لا سيما للبحاثة والكتاب ولا غنى للمكتبة العربية من احتوائها .

يُعدُّ كتاب من البحر المتوسط إلى الخليج اللبنة الأساسية للكتاب الموسوعي الكبير البدو. إن كتاب البدو يعتبر من أهم وأشمل وأدقّ الكتب التي بحثت في تاريخ وهجرات وأصول وأنساب القبائل العربية وعشائرها .

الفصل الأول

في ضيافة شمر وبعض القبائل العربية

وفد الشيخ فارس في نصيبين ـ في الطريق إلى ديار الشيخ فارس ـ استراحة في ديار طيء ـ الوصول إلى ديار الشمر ـ شخصية الشيخ فارس ـ الحياة والنشاط في المخيم ـ شكل المخيم البدوي، خيمة البدو ـ إعداد القهوة ـ أدوات المطبخ الهودج ـ تفضيل البدوي لحياة الخيمة ـ ازدراء البدو للمدن ـ أوّل ذكر في التاريخ لسكّان الخيام من العرب ـ مقالة سترابو حول الرعاة المتنقلين في بلاد ما بين النهرين ـ تأثير الإسلام، قبيلة طيء ـ نزوح العرب ـ بنو قيس ـ الخزرج بنو تميم ـ بنو لام ـ وشمر في شبه الجزيرة العربية ـ هجرة شمر إلى سوريا وصراعهم مع الموالي ـ عنزة، شمر يعبرون نهر الفرات ـ أحدث الأمثلة عن هجرات البدو، بنو هنادي بنو سليم وبنو هلال ـ شمر في بلاد ما بين النهرين ـ دور شمر في اضطرابات بغداد سنة 1830 ـ صفوق: شيخ شمر ـ الشيخ الخصم شلوش ـ معارك بين شمر وعنيزة ـ الشيخ صفوق والحكومة ـ انقسام جديد لشمر: الشيخ نجرس

ونهاية الشيخ صفوق ـ أبناء الشيخ صفوق: الشيخ فرحان، الشيخ عبد الرَّحمٰن ـ الشيخ ماجوم، الشيخ عبد الكريم، الصراع ضد الأتراك ـ حداثة الشيخ فارس، أصغر أبناء الشيخ صفوق ـ تقسيم بلاد ما بين النهرين بين أتباع فرحان وأتباع فارس: شمر الشمال وشمر الجنوب ـ أبناء فرحان[1]. نفوذ الشمر في بلاد ما بين النهرين، الخوَّة ـ ميثاق الخوَّة بيني وبين الشيخ فارس ـ مجموعات القبائل البدوية ـ قبائل غرب الخابور ـ قبائل في بلاد ما بين النهرين ـ قبائل على الخط الرابط بين الدير والفلوجة ـ سكان ضفة دجلة ـ جنسيات غير عربية بين البدو ـ الأكراد والتركمان ـ الشركس ـ موقف الباب العالي من قضية البدو ـ بناء بيوت ثابتة، كسب تأييد الشيوخ ـ مدرسة البدو في القسطنطينية ـ ضرورة الإجراءات العسكرية قضية البدو في قصر ـ نجاح السياسة التركية مع البدو ـ توسيع شبكة التلغراف في الصحراء.

وفد الشيخ فارس في نصيبين

فوجئنا في اليوم الثاني من وصولنا إلى نصيبين بقدوم مجموعة تضم زهاء عشرين بدوياً إلى مخيمنا، فقد كان رجال فارس باشا الَّذين رافقونا من دير الزور إلى هنا قد أرسلوا إلى سيِّدهم يخبرونه بعزمي على زيارته، فأرسل الشيخ هذه المجموعة من الفرسان لترافقني في طريقي إليه.

---

(1) فارس والحكومة التركية: فارس باشا، ـ زوجات وأبناء فارس ـ.

وكان على رأس هذه الكوكبة من الفرسان صبي رائع الجمال في الثانية عشرة من عمره، هو الابن الثاني للشيخ فارس. كان الفتى يحمل مثل رفاقه رمحاً طوله خمسة أمتار ممَّا يجعله يضاهي أربع مرَّات قامة البطل الصغير نفسه، وثبَّت الفرسان رماحهم في الأرض في صمت أمام خيمتي وحيَّوني بالطريقة الاحتفالية المعروفة، وبلَّغوني دعوة الشيخ فارس، فقدَّمت للضيوف مأدبة عشاء كما تقتضيه عادات الضيافة عند البدو، وفي صباح اليوم التالي تقدَّمتنا قافلتي مع بعض الرِّجال من قبيلة شمر بعدما قدَّمت للضيوف هدايا من الملابس، حيث أعطيت ابن الشيخ فارس قفطاناً من الحرير الأحمر «زبون» وكفّية من الحرير وحذاء أحمر، وأعطيت ابن عم الشيخ قفطاناً قصيراً من الحرير الأزرق، وكفّية من الحرير، وحذاء فرسان أحمر اللون. أمَّا بقية المرافقين فقد حصل كل منهم على كفية. أمَّا نحن فلم ننطلق إلاَّ في الساعة الواحدة ظهراً، وقبل ذلك ذهبت إلى سوق نصيبين لاستكمال زادي من الهدايا الَّتي كنت أنوي توزيعها قريباً في مخيم شمر.

الطريق إلى ديار الشيخ فارس

تتجه الطريق إلى الشيخ فارس نحو الجنوب الشرقي عبر البراري، بعدما عبرنا رافداً من روافد الجغجغ مررنا بسلسلة من القرى تركناها على يسارنا. وبعد دقائق قليلة من مغادرتنا المدينة

مررنا أولاً بقرية «ويسيكة» المهمة، ثمَّ قرية عنيترة، وفي الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة مررنا بقرية «صيقية» وهي قرية حديثة العهد، وفي الثانية مررنا بقرية «السَّلام عليكم» وفي الثانية والنصف بقرية «سوطي»، وفي أثناء ذلك كنَّا قد توجهنا في زاوية حادة تاركين خلفنا أطراف جبل الطور، إلاَّ أنَّ القرى المتناثرة على سفوحه ظلَّت مدَّة طويلة على مرأى منَّا.

حثثنا السير حتَّى أصبحت الخيل تعدو في معظم الوقت بينما كان فرسان شمر يقدِّمون دون كلالة عروض الفروسية والقتال «لعبة الجريد» الَّتي كثيراً ما يسميها عرب الحاضرة «الفنتازيا». تتمثَّل هذه اللعبة في أن ينفصل بعض الفرسان عن القافلة ملوِّحين برماحهم في هزّ متواصل، مقلِّدين دور الهارب والمتابع له، متبادلين الأدوار في ذلك، أو أن يحاول الفرسان انتزاع كفّيات بعضهم بعضاً مثلما نفعل فيما نسميه «لعبة الوردة». وهكذا يضع الفرسان أنفسهم وخيولهم تحت تجربة قاسية من حيث الرشاقة والحركة بالنسبة للفرسان، ومن حيث السرعة بالنسبة للخيل[1].

---

(1) قليلاً ما يعرف سكَّان الصحراء الشمالية العربية «الفنتازيا» على الطريقة السائدة خاصة في شمال إفريقية والمغرب والمعروفة باسم «لعب البارود»، وفي لعب البارود ينطلق الفرسان ركضاً في خط مستقيم وفجأة يندفعون بسرعة كبيرة، وعند إشارة معينة يطلقون النَّار على الأرض أو

وصلنا إلى مخيم طيء بعد الساعة الثالثة بقليل حيث تنتصب في المدخل الغربي خيمة عملاقة للشيخ عبد الرَّحمٰن كبير شيوخ القبيلة وأبو إحدى زوجات، الشيخ فارس باشا، واضطررنا إلى النزول من ركابنا لتناول القهوة، ورغم عجلتنا اضطرنا الشيخ إلى البقاء ساعة من الزمن، فلم نتمكن من مواصلة سيرنا إلاَّ بعد الساعة الرابعة، وكان علينا أن نحثُّ السير لتدارك الزمن الَّذي ضاع منَّا، وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى آثار تل بريش الَّذي تقع عند سفحه قرية صغيرة تتكَّون من بضع منازل مبنية من الطين، وعبرنا هنا أوَّل نهر متوسط الحجم يشقُّ طريقه من الشمال إلى الجنوب وهو سيل بريبج، بعد ذلك بعشرين دقيقة قطعنا نهراً آخر، وقرابة الساعة الخامسة والنصف طالعنا مخيم الشيخ فارس

في الفضاء، أو يقذفون بنادقهم إلى أعلى ليلتقطوها عند النزول وهم قائمون على سروجهم والخيل في عدو سريع. وفي المغرب يؤدِّي الراجل أيضاً لعبة البارود فيقفز مصوباً بندقيته إلى الأرض مطلقاً النَّار كأنَّه يرمي عدواً منبطحاً.

أمَّا في بلاد ما بين النهرين فإنَّ ألعاب الفرسان تركز على النزال الفردي، وأمَّا بخصوص لعبة كان يمارسها العرب قديماً وتتمثَّل في متابعة الفرسان لكرة يضربونها بعصا خشبية، فقارن في ذلك يعقوب في كتابه «حياة البدو والعرب قديماً» الطبعة الثانية برلين 1899م، ص112. يجوز أنَّ هذه اللعبة دخلت بلاد الهند مع الإسلام، فهي تشبه إلى حدٍّ كبير لعبة «البولو» الَّتي وجدها الإنجليز وتعرفوا عليها في الهند وجاؤوا بها إلى أوروبا.

شيخ شمر عبر أرض سهلة عند منخفض يُسمَّى «الخريبة» يقع على مسافة عشرين دقيقة من هضبة الآثار الكبيرة المُسمَّاة «سهيلة»، وعلى السفح الجنوبي من الهضبة تقع قرية صغيرة للأكراد، ولم يكن مخيم شمر الواقع أمامنا كبيراً إذ كان يضم بين مائة ومائة وعشرين خيمة على أقصى تقدير، إلاَّ أنَّه لم يكن يمثل ديار القبيلة بكاملها.

يقع المخيم الأساسي في الجنوب الشرقي، في مكان يكثر فيه الماء لسدّ حاجة النَّاس والدواب؛ ذلك أنَّ النهر الَّذي يخترق مخيم الشيخ فارس يكاد يكون جافاً، ولذلك يتم جلب المياه من عدد من الآبار.

الوصول إلى ديار شمر

يكشف مخيم البدو عن منظر غاية من الروعة والجمال: من الخلف لون البراري الأصفر الشاحب، يتميَّز من أمامه لون الخيام السوداء الَّتي تبرز من فوقها رماح عديدة، ويطلع الفرسان وحداناً ثمَّ يختفون من جديد، في حين تبقى معظم الخيول مربوطة من أرجلها بحبال طويلة إلى أوتاد في ظلّ الخيام، ويروح ويغدو بينها الأطفال والكلاب.

عندما أشرفنا على مخيم الشيخ فارس من المرتفع، استأنف

مرافقونا من البدو ألعاب الفروسية بنشاط مضاعف، وراحوا يطلقون صيحات متوحشة وهم ينقضُّون انقضاضاً على الخيام الَّتي انطلق منها عدد من الفرسان للمشاركة في ألعاب القتال. استقبلنا الشيخ فارس قائماً على قدميه أمام خيمته، يحيط به عدد من رجاله، فترجَّلنا بمساعدة المستقبلين، ثمَّ دخلنا مجلس الرِّجال في خيمة الشيخ، وكان يجثو هناك على الأرض عدد يزيد على المائة من الرِّجال الَّذي هبُّوا قائمين بمجرَّد دخولنا، وفي وقار لا يمكن وصفه دُعينا إلى الوسائد المستندة إلى الجدار الفاصل بين مجلس الرِّجال ومجلس الحريم. وما كدنا نفعل حتَّى عاد البدو إلى الجثو في أماكنهم واستئناف المحادثة الَّتي توقفت عند ظهورنا بالصوت الخافت المعهود، وجلس المضيف إلى جانبنا وبدأ تبادل التحية المتكرر في لهجة رسمية.

شخصية الشيخ فارس

وفي كلفة شديدة تمَّ إعداد القهوة ودارت لما يزيد عن النصف ساعة حتَّى أنهى جميع الحاضرين رشف هذا السائل الأسود بارتياح مسموع، وأريد أن أسجِّل هنا أنَّنا لم نتعرَّض إلى أية مضايقة من طرف البدو، لا عند استقبالنا ولا أثناء إقامتنا في مخيم شمر، ولقد كانوا على قدر كبير من الاحترام والاستقامة، كما أنَّ

تصرفهم فيما بينهم كان هادئاً ومتزناً، ثمَّ إنَّني أريد أن أؤكد نظراً للسمعة السيِّئة المنسوبة إلى البدو عند أهل المدينة، أنَّه لم يسرق من أمتعتي أيّ شيء أبداً.

جاء كثير من الضيوف من خيام بعيدة للشمر؛ الأمر الَّذي سمح لي بمتابعة مراسم الاستقبال عن كثب، وكان أهل الضيافة يجيدون التمييز قليلاً في طريقة استقبالهم لضيوفهم حسب أهمية الشخص دون أن يتخلوا في ذلك عن شيء من وقارهم. أمَّا عن الشيخ فارس فقد وجدته كالأمير الَّذي يبدو شخصه الوقور في تناقض غريب مع الملابس البسيطة لهذا الباشا التركي الَّذي يحمل لقب «صاحب السعادة» إلاَّ أنَّ هذا اللقب ما كان يراعى من طرف رجال قبيلته الَّذين كانوا ينادونه بكلٍّ بساطة: «يا شيخ» أو «يا فارس»[1].

كان فارس سميناً بالنسبة لما هو معهود عند البدو؛ ذلك أنَّه لم يشارك منذ سنين في الغزوات والحروب بل كان يعيش حياة مريحة تماماً، وعلى عكس البدوي النحيف الَّذي وصفه البلانتس وزاخاو عند التقائهم به سنة 1878م وسنة 1880م على التوالي،

---

(1) يذكر أو يتينج في كتابه «يوميات سفر في أعماق البلاد العربية» ، لندن 1896، المجلد الأوَّل، ص172، هامش (2) أنَّ الأمير محمَّد بن رشيد حاكم نجد الَّذي توفي منذ فترة، كان أيضاً يخاطب بكلٍّ بساطة باسمه: «يا محمَّد».

فقد أصبح الآن يضاهي في بدانته عرب المدينة أو الأتراك، وقد كان متوسط القامة، وكان رأسه يعلو رقبة غليظة، وتحفها الحيَّة حادَّة سوداء، يتخللها شيء من الشيب يحلي شفته العليا، وكان له حاجبان كثيفان يظللان عينيه الذكيتين البرَّاقتين، أمَّا وجهه فكان مكتنزاً، وأنفه العريض شديد الانحناء، أسمر اللون تنمُّ تقاسيم وجهه عن مزيج عجيب من الطيبة والودّ والقسوة اللامتناهية. أمَّا ملابسه فقد كانت كما ذكرت بسيطة: كان القميص قد اتخذ لوناً غير محدد يشهد على طول الاستعمال، والعباءة البنية لا تكاد تحمل وشاحاً، وكانت الكفية بسيطة أيضاً، سوداء ذات حاشية صفراء، وكان يشد عقاله إلى الرأس بلثام أبيض يحيط بالذقن، وكان حافي القدمين داخل الخيمة طبعاً، أمَّا خارجها فكان يرتدي خُفاً أحمر. وكان دائماً يتقلَّد سيفاً عريضاً منحنياً ونادراً ما يتخلَّى عن غليونه التركي.

الحياة والنشاط في المخيم أو الحي

كانت الضيافة عند الشيخ فارس مبالغاً فيها حتَّى بالمقاييس العربية؛ ذلك أنَّها شملتني وقافلتي والعشرين جندياً الَّذين كانوا يرافقوننا وركابنا كافة، أمَّا أنا فكنت أتناول جميع وجباتي مع شمر في خيمة الشيخ فارس، وقد نصبت خيامي وخيمة الضابط المرافق لي مباشرة إلى جانب خيمة الشيخ فارس.

مرَّت الأيَّام الَّتي قضيتها في مخيم شمر بسرعة نظراً للأحداث الكثيرة الَّتي تخللتها؛ فقد زارني أثناء إقامتي عند الشيخ فارس شيخ قبيلة طيء في عدد من رجاله بغية الحصول على هدية مقابل القهوة الَّتي تناولتها في خيمته، كذلك جاء شيوخ القبائل الصديقة: كالجبور، والحديديين، والبقارة، وقيس وغيرهم بهدف تنظيم موضوع «الخوَّة» في معظم الحالات، وقد كان لي اهتمام خاص بزيارة ستة من الأكراد يقودهم صبي حسن المحيا في العاشرة من عمره، كانوا يركبون خيولاً جميلة، ويرتدون ملابس غاية في الحسن تختلف كلياً عن ملابس البدو، وكان هؤلاء أيضاً يحملون رماحاً ثبتوها في الأرض أمام خيمة الشيخ فارس للدخول عندئذٍ إلى مجلس الرجال، فجلس الصبي وعمّه المرافق له في مقعد على الوسادة الطويلة المحاذية لمجلس الحريم، غير بعيد عن المكان الَّذي أجلس فيه، بينما اختلط بقية الأكراد بالبدو الجالسين في الخيمة، ووضع الضيف كيساً كبيراً من التبغ أمامه وما لبث محتواه أن آوى إلى غلايين الشمر. كان اسم السيِّد الصغير عيسى، وكان من أبناء شيخ قرية صغيرة واقعة على الأطراف الجنوبية لجبل الطور سكَّانها مسيحيون، وكانوا رجال حرب وقتال تماماً مثل إخوانهم المسلمين من أهل القبيلة، ولا يقلون عنهم شيئاً في التزام الدِّين، كان هدف زيارة الشيخ عيسى للشيخ فارس نفس الهدف الَّذي جاء من أجله بقية سادة

القبائل، فقد كان يرغب في تخفيض مبلغ «الخوَّة»، وقد تحقَّق له ذلك إلى حد ضئيل، وكانت تلك أوَّل زيارة له عند سيِّده منذ وفاة والده وتولِّيه النفوذ على قومه، وكان عمه ينوب عنه في الكلام في قضيته، أمَّا هو نفسه فقد بدا وكأنَّه لا يحظى بتقدير كبير، في الوقت نفسه تقريباً قدم كبير شيوخ قبيلة عدوان واسمه فاضل، من ربوعهم الواقعة حالياً عند قور نشار شمال رأس العين، على مسافة عدَّة أيَّام من مخيم الشيخ فارس، لأداء واجب السَّلام على هذا الأخير. كما جاء موظف مدنيّ تركيّ «عشاير ماموري» يصحبه بعض الجنود للمطالبة بالضرائب على قطعان حيوانات البدو، ولم تكن قطعان الإبل والغنم الكبيرة الَّتي يتعيَّن على هذا الموظف عدَّها لتحديد مبلغ الضرائب موجودة في مخيم الشيخ فارس، وإنَّما كانت عند باقي رجال القبيلة.

بعد طلوع الشَّمس بقليل تجمع الرِّجال في خيمة الشيخ فارس، وفي الساعة العاشرة قدم الفطور الَّذي يتكوَّن في معظمه من بقايا وجبات اليوم السابق مع العسل والخبز الطازج، ويأتي معظم الزوَّار في العادة بعد الظهر فتمتلىء الخيمة في الغالب، وتجري القهوة مجرى السيل إذا جاء ضيف جديد يستحق إكراماً متميزاً. وبعد الغروب بقليل تُقدَّم وجبة اليوم الأساسية فيأكل مئات من النَّاس من جفنات عظيمة عليها الأرز والبرغل، وفوق ذلك عدد من الخرفان، ويسقى الطعام بكميات كبيرة من السمن. أمَّا

الإنارة فكانت ضعيفة؛ لأنَّها تصدر عن بضعة مصابيح زيتية وعن النَّار الَّتي يتمُّ عليها إعداد القهوة، وقد أضفت المصابيح الَّتي جئت بها من خيمتي شيئاً من بهجة الاحتفال على هذا التجمُّع، وعندما أرخى اللَّيل سدوله انسحب أفراد عشيرة شمر إلى خيامهم حتَّى لا يضايقوا ضيوف الشيخ فارس. يتمّ نصب خيام البدو بطريقة غير منتظمة، بحيث توضع الخيام في مجموعات يتحكَّم فيها عامل ملاءمة المكان وعامل القرابة العائلية، وتتوزع هذه المجموعات في العادة على مسافات كبيرة، أمَّا عند الخطر فإنَّها تتزاحم في مكان ضيق، ويتمّ نصب الخيام إذا أمكن على شكل صفوف.

الأسماء العربية لأجزاء الخيمة البدوية

البيت: الخيمة.

الشقاق: سقف الخيمة.

الرواق: الستار النازل من سقف الخيمة والَّذي يكتنف الخيمة تقريباً، ويكون عادة مرفوعاً عند مدخلها.

الخدرة: الحاجز الَّذي يفصل بين قسم الحريم وقسم الرِّجال.

الربعة: قسم الرِّجال من الخيمة.

العواميد: هي الأعمدة عامَّة، ولكل خيمة ثلاثة صفوف من الأعمدة باتجاه الطول، هي الَّتي ترفع سقف الخيمة.

الواسط: هي جميع أعمدة الصف الأوسط عدا عمودَي الركن، والواسط هو أكثر أعمدة الخيمة طولاً[1].

الكاسر: هما عمودا الركن للصف الأوسط.

المجدب: هي جميع الأعمدة متساوية الطول للصفين باتجاه الطول عدا عمودَي الركن لصفي الطول الخارجيين.

الطارفة: أعمدة الركن للصفين الخارجيين باتجاه الطول.

الطرايق: أجزاء من النسيج قليلة العرض تصلح لشد القطع الَّتي تتركب منها الخيمة ولحماية السقف عند المناطق الَّتي ترفع فيها الأعمدة سقف الخيمة، وتخاط الطرايق إلى الوجه الداخلي لسقف الخيمة.

الكراب: قطعة من الخشب على شكل شوكة تمثِّل طرف الأعمدة، وتحمل سقف الخيمة وتثبت فيها الحبال الَّتي تشدُّ الخيمة.

---

(1) في مصر يُسمَّى العمود الأوسط «الواسط»، ويطلق اسم العامر على العمودين الجانبيين اللَّذين يجدِّدان مع الواسط اتجاه الأعمدة الأخرى الَّتي تحمل الخيمة، ويطلق اسم «المقدم» على العمود المثبت باتجاه الطول عند المدخل.

الطناب: أو الحبل ـ حبال الخيمة[1].

الحي البدوي، خيمة البدوي

يعرف بدو بلاد ما بين النهرين وسوريا طريقة نصب الخيام على شكل نصف دائرة «الدوَّار» مثلما عهدناها خاصَّة عند بدو شمال المغرب، وهذا الترتيب على شكل نصف دائرة، أو بالأحرى على شكل حدوة الفرس يجعل الخيام إذا شدّت حبالها شدّاً واسعاً وثيقاً، واتجهت أبوابها كافة إلى الداخل على هيئة الحصن الَّذي يحمي أهله من فرسان العدو ما لم يكونوا مزوَّدين بأسلحة نارية.

إنَّ إحاطة الخيام بسياج من النباتات الشائكة على الطريقة المعروفة في شمال إفريقية «الزريبة» غير مستعمل في مناطق السهول الجرداء؛ وذلك لعدم توفر المواد اللازمة ولكن عند

(1) الطناب يُسمَّى في مصر «الحبل»، والمثلث الخشبي المكوَّن من قطعتين والَّذي يصلح كحلقة ربط للحبل والعمود والخيمة يُسمَّى في مصر «شعب» جمعه شعوب.

الطارقة	المجدب	الطارقة
الكاسر	الواسط	الكاسر
الطارقة	المجدب	الطارقة

توافرها مثلاً في منخفضات نهر الفرات، فإنَّ استعمالها معروف ومحبَّذ، كما تحفر السواقي في كثير من الأحيان حول كل خيمة في فصل المطر لتيسير جريان المياه، وتكون خيام بدو الصحراء العربية وبلاد ما بين النهرين دائماً ذات زوايا، خلافاً للخيام المستديرة الَّتي يستعملها المسافرون والجيش التركي في المشرق[1].

وتحقق خيمة البدوي في شكلها البدائي غرض الوقاية من البرد والشَّمس، وفي الأعمّ تشدُّ الخيمة بحبال إلى أعمدة مثبتة باتجاه طول الخيمة. والخيمة ليست قطعة مستطيلة واحدة بل تتركب من عدد من القطع العريضة المنسوجة من شعر الماعز ووبر الإبل، أمَّا عدد الأعمدة فيتراوح بين اثنين وتسعة أعمدة.

عادة ما توثق الخيمة عرضاً بحبال قصيرة قريباً من الأرض، في حين يبقى جانب الطول مفتوحاً على وسعه عن طريق شده إلى حبال طويلة حيث يبلغ علو المدخل ارتفاع قامة الرجل أو أكثر حسب طول الأعمدة، وكثيراً ما يتم رفع الخيمة بعدد من الأعمدة الموازية للأولى من جانب أو من جانبين، ويوجّه الجانب المفتوح من الخيمة عكس اتجاه الريح والمتغيرات الطبيعية، أمَّا في زمن

(1) تعرف خيام هؤلاء عامَّةً بلونها الأخضر الفاتح.

الحر فإنَّ الخيمة تفتح من جانبين متقابلين لتيسير مجرى الهواء.

حجم خيمة الشيخ كبير جداً، وتتركب خيمة الشيخ فارس من عدَّة شقق[1] عرض الواحدة منها ثلاثة أرباع المتر تقريباً، تخاط هذه الشقق إلى بعضها بطريقة غير محكمة، وتُفكّ للترحال إذ إنَّ خيمة كاملة تمثل عبئاً ثقيلاً لا يتحمَّله جمل واحد[2]. كان عرض خيمة الباشا يُقارب خمس عشرة خطوة وطولها قرابة خمسة وثلاثين خطوة، وكانت الأعمدة الوسطى ترتفع إلى ضعف ارتفاع قامة الرجل. وتقسم الخيام الكبيرة دائماً إلى غرفتين يفصل بينهما جدار هو «المعند»، تُسمَّى الغرفة الكبرى «المقعد»، وتخصص عادة لاستقبال الرِّجال والضيوف وعقد الاجتماعات، أمَّا الصغرى وهي «المحرم» فتخصص لإقامة النِّساء، وفي غرفة الرِّجال تفرش على الجدار الداخلي الفاصل وعلى الجوانب مفارش وأغطية وسجاد ووسائد حسب إمكانيات صاحب الخيمة وثرائه. أمَّا في الخيام الكبيرة فتفرض هذه الأمتعة على شكل نصف دائرة، أو على شكل حدوة تتجه إلى الجانب الغربي صباحاً وإلى الجانب الشرقي بعد الظهر.

---

(1) بوركهاردت ـ ملاحظات حول البدو والوهابيين، فايمار 1831م، ص29 و31 يذكر خطأ كلمة «شوكه» عوضاً عن «شقة».

(2) إذا كانت هناك قطع تتدلى من سقف الخيمة إلى الأرض فإنَّه يطلق عليها اسم «رواق، رواقات» وتصنع عادة من وبر الإبل حتَّى ولو كان سقف الخيمة من شعر الماعز.

أخيراً توضع «القِرْبة» وسطَ غرفة الرِّجال في مكان مرتفع مخصص لهذا الغرض، أو على حجر، ويغرف منها الماء في وعاء يُسمَّى «الطاسة» الَّتي تصنع من النحاس أو من الخشب، فأمَّا الطاسة النحاسية فشكلها نصف كروي، وأمَّا الطاسة الخشبية فهي على هيئة مقياس اللتر[1]. وغير بعيد عن القرب توجد بعض الأحجار على شكل موقد للنَّار يُسمَّى «وجاق» يستعمل مكاناً لإعداد وطبخ القهوة، ولكن تكفي حفرة بسيطة في الأرض أحياناً لهذا الغرض، وفي الخيام الصغيرة الحجم يعالج الموقد بنفس الطريقة الَّتي سبق ذكرها، بحيث يوضع مباشرة أمام الخيمة بطريقة لا تسمح للدخان بالدخول إليها، ولعملية إحضار القهوة دور هام في حياة البدو، ويقوم بذلك في شيء من الأبَّهة الشيخ نفسه أو أحد المقرَّبين الَّذي يضطلع بمهمة المراسم، أو أحد الخدم المقرَّبين بمساعدة ثلاثة أو أربعة أشخاص آخرين، ويتم انتقاء حبوب القهوة أمام الضيوف، ثمَّ توضع في مقلاة تُسمَّى «القدرة» أو في المحمصة أو المحماص[2]، وبعد ذلك توضع على النَّار، والمحماص وعاء من الحديد على هيئة الملعقة وله ذيل طويل. ولا يفتأ المرء يحرِّك الحبوب بقضيب حديدي مثبت عند ذيل

(1) يستعمل البدو في مصر وعاء خشبياً على شكل مجرفة يُسمَّى القدح.
(2) أنظر أويتنج ـ يوميات رحلة في أعماق البلاد العربية، لندن 1896م، ص195.

المحماص حتَّى تتم عملية التحميص ببطء وحذر شديدين، بعد ذلك تدقّ حبوب القهوة في «هاون»، ويلاحظ أنَّه يفضل الهاون السوري والدمشقي بالذات المصنوع من الخشب ويُسمَّى «المدق»، وهو كبير الحجم بقدر المقعد الصغير ومنحوت بطريقة فنية، ومزيَّن بمسامير تدقّ عند حواشيه أومزخرف بالصدف، ويمثل الهاون أداة مهمَّة في بيت البدوي المحترم، وأمَّا المهراس الَّذي يصنع من الحديد أو النحاس الأصفر فيُسمَّى «الهاون»[1]، ويولي البدو للزّنين الجميل أهمية كبيرة، وتطحن حبوب القهوة في دقّ متوازن، كثيراً ما تراعى فيه الوتيرة الموسيقية.

بعد ذلك تطهىٰ القهوة في وعاء يُسمَّى «القمقم»[2] وهو إبريق من النحاس الأحمر أو الأصفر، دقيق الرقبة وله مقبض «أذن» وغطاء وزلومة «منقار»، وتوجد منه أحجام مختلفة لتسع عدَّة لترات من السائل في حين لا يسع أصغرها إلاَّ بضعة فناجين. وعادة ما تُصفُّ القماقم بانتظام حسب أحجامها إلى جانب الموقد، وأمَّا الفناجين فلها نفس شكل أمثالها المستعملة في المدن إلاَّ أنَّها أكبر منها بكثير، ويتذوق الطاهي القهوة عدَّة مرَّات، ويصبّ ما يتبقى

(1) يُسمَّى «النقر» أو «الجرن» أنظر الصورة من كتاب أويتنج، ص83.

(2) يُسمَّى «دلة» في سوريا ونجد، قارن بكتاب هوبر – يوميات مسافر في البلاد العربية 84/ 1883 باريس 1891م، ص131 وأويتينج، ص83/ 84، بالإضافة إلى أسماء أخرى لأدوات منزلية وما شاكلها ممَّا يستعمل في الحياة اليومية.

في الفنجان من جديد في الإبريق، ولا يضيف البدو السكر إلى القهوة إلاَّ نادراً في حين تستعمل التوابل بكثرة خاصَّة حبّ القرنفل[1]، وتراعى الأولوية عند تقديم القهوة إلى الحاضرين حسب المقام، ولا يصبّ في الفنجان إلاَّ شيء قليل[2]؛ فإذا أراد البدوي إكرام ضيف بصفة متميزة، فإنَّه يقدِّم إليه القهوة ثلاث مرَّات أو أكثر، ولا يجوز له الرفض إلاَّ بعد المرَّة الثالثة إذا كان حريصاً على عدم إهانة المضيف.

أدوات المطبخ

ونادراً ما يزيد عدد الفناجين على الستة، وأقصاه عشرة أو اثنا عشر فنجاناً حتَّى ولو بلغ عدد الضيوف المائة، ولا تغسل الفناجين أبداً أثناء تناول القهوة، وفي الخيام المؤثثة تأثيثاً جيداً تصبّ القهوة قبل تقديمها ثلاث مرَّات متتالية في أباريق أصغر كل مرَّة، وتُسمَّى على التوالي لقمة، مصفاة، مصبّ، ويتناول كبار الضيوف فناجين القهوة من يد كبير المكلفين بإحضارها الَّذي يصبّها ويقدِّمها بنفسه، أمَّا بقية الحاضرين في خيمة الشيخ فارس فتدار عليهم في صينية توضع عليها الفناجين الَّتي تملأ بالقهوة عند الموقد.

---

(1) في نجد يستعمل الهيل بكثرة ويُسمَّى عند البدو المصريين «حب هان» وكثيراً ما يُضاف الزعفران إلى القهوة.

(2) يعتقد «دوتي» أنَّه وجد تعليلاً لهذه الظاهرة، أنظر المجلد الأوَّل، ص245.

تتراكم عادة أكياس وأوعية تحمل الزاد والحبوب والملابس وغيرها في غرفة النِّساء عند الجدار الفاصل، حيث تحفظ الفرش أيضاً بعد طيِّها، ويوجد قريباً منها موقد حجري كبير شبيه بموقد القهوة الصغير في غرفة الرِّجال، وأمَّا الطهي فيتم باستعمال أوعية حديدية أو نحاسية مطلية يُسمَّى أصغرها «طنجرة» تطبخ فيها الوجبات العادية لأهل البيت وعند استضافة عدد كبير من الناس يستعمل الوعاء الذي يسمى «دست» ويتسع لعشرين لتراً أو أكثر، والوعاء الأكبر من هذا يسمى «القدرة»، فأمَّا الطنجرة والدست فإنَّها تضيق في أعلاها في حين تكون القدرة على شكل مرجل نصف كروي له حافة عرضها ثلاثة أو أربعة سنتيمترات، هذه المراجل تستعمل أيضاً لتحويل الحليب إلى جبن عن طريق خضِّها لفترة من الزمن، ويقدّم الطعام في وعاء يُسمَّى «المنسف»، وهو طبق أو صحفة مستديرة منخفضة يختلف قطرها من عشرين سنتمتراً إلى متر أو أكثر، وأمَّا الملاعق فيزدريها البدو ويستعملون عند الطبخ ملاعق خشبية كبيرة تُسمَّى «مغرفة»، ويطلق على الصغار منها اسم «خاشوقة»، وقد توضع هذه الأخيرة على المائدة عند وجود الحضر من بين الضيوف.

وجدت عدَّة مرَّات «الهودج»[1] في وسط غرفة النِّساء في خيام

---

(1) أنظر الصورة في نهاية الكتاب وأيضاً الصورة الموجودة عند لايارد ـ نينوى وبقاياها، المجلد الأوَّل من 854، وأنظر الهودج المغربي في كتاب يعقوب ص28.

الشمر، وهو عبارة عن حمالة على هيئة المقعد الوثير تجلس فيه المرأة فوق ظهر البعير.

الهودج

وللهودج سقف تحمله قضبان خشبية مقوَّسة وتعلق عليه قطع من القماش، أمَّا بدو بلاد ما بين النهرين فيجعلون على جانبيه قطعاً من الخشب في وضع أُفقي بحيث تزيد في طوله، كما أنَّه يُحلَّى بأهداف ذات ألوان زاهية، ولا يستغني أعيان شمر عن هذا الزخرف أبداً، وتحفظ سروج الخيل والأشياء الثمينة إن توافرت في غرفة النِّساء أيضاً، وتودَع الثياب الثمينة وحلي النِّساء والمال في فصل الصيف عادة عند بعض الأصدقاء في المدن المجاورة، هذا على الأقل ما أكَّدوه لي عند سؤالي؛ إلاَّ أنَّه يجوز أن تكون هذه الأمتعة قد رهنت للتمكن من دفع الضرائب نقداً.

تفضيل البدوي لحياة الخيمة

تقسم غرفة النِّساء في الخيام الكبيرة باستعمال الستائر إلى حجرات تبسط فيها فرش مختلفة للنِّساء، ويملك كبار الشيوخ خياماً إضافية تعيش فيها زوجاتهم مع الأطفال وبعض الخدم، خاصَّة إذا كانت هؤلاء الزوجات على علاقة سيِّئة مع الزوجة الأولى.

ويرجع إصرار البدوي على استعمال هذه الخيام الَّتي تضمن

حماية كافية من عوامل الطبيعة إلى نمط حياته وطبيعة البدوي، ويفتخر ابن الصحراء بخيمته السوداء إلى درجة احتقار الحضر ومنازلهم الحجرية؛ ولهذا يواجه الباب العالي صعوبات كبيرة في سعيه إلى إيجاد شيء من الحضارة والمدنية عند البدو عن طريق حملهم على الاستقرار، فقد استجابت قبيلة طيء مثلاً إلى طلب الحكومة، وشيَّدت بيوتاً ثابتة أو حصلت عليها من الحكومة، غير أنَّها لا تزال تسكن الخيام في حين تبقى البيوت الثابتة خالية[1]، ويذكر لايارد[2] أنَّ امرأة بدوية هي زوجة سطام شيخ شمر رفضت أن تتحمَّل عار النوم في خيمة بيضاء من الخيام الَّتي يستعملها أهل المدن، كما يذكر أنَّ أميرة مصرية في عهد الخديوي عبَّاس الأوَّل ـ وكانت ابنة شيخ بدوي ـ أمرت بنصب خيمة لها فوق سطح القصر الَّذي تعيش فيه[3]، ولا يزور البدو المدينة إلاَّ على مَضَضٍ، أمَّا شيوخ القبائل الكبيرة فلهم وكلاء في الأماكن الَّتي ينبغي عليهم زيارتها بين الحين والآخرة إمَّا لقضاء الحاجة ماسة أو لشراء كميات كبيرة من الزاد، كما أنَّ أهل المدينة يظهرون بدورهم نفوراً شديداً من أبناء الصحراء الغير متدمنين.

---

(1) أنظر الجزء الثاني، الفصل 6 ص215 وقارن الفصل 1، ص21 من البحر المتوسط إلى الخليج.

(2) نينوى وبابل، ص203.

(3) أنظر الجزء الأوَّل الفصل 5 من البحر المتوسط إلى الخليج، ص202.

إن كره البدو[1] لحياة الاستقرار يوضح السبب في أنَّهم لم يستطيعوا أبداً الانضمام إلى شعب موحَّد، وليس هناك أدنى شك في أنَّ سكَّان الخيام والرعاة الرُّحَّل قد جابوا الصحراء العربية الشمالية وبلاد ما بين النهرين منذ أمد بعيد، فالإنجيل يذكر أنَّ إبراهيم نزح مع جموع قومه من بلاد ما بين النهرين إلى الأراضي المقدَّسة والبحر الميِّت، والوثائق الَّتي تشير إلى وجود البدو في شمال شبه الجزيرة العربية تثبت أنَّ المعطيَّات الحضارية لهؤلاء النَّاس كانت ولا زالت على نفس النمط الَّذي نجده عندهم إلى اليوم، وفي هذا الصدد يحظى تراثهم الشعبي القديم بقيمة كبيرة في الدلالة على صحة هذا القول.

أوَّل ذكر في التاريخ لسكَّان الخيام من العرب

نجد أوَّل ذكر للعرب الَّذين كانوا على ما يبدو يركبون الإبل في تقرير بالكتابة المسماريَّة للملك الآشوري سلمنصار الثَّاني الَّذي حكم من سنة 860 إلى 825 قبل الميلاد[2]. وقد شنَّ الملكان سنحريب وآشور بانيبال[3] في القرن السابع قبل الميلاد

(1) كلمة «بدو» مفردها بدوي، وتعني بالنسبة لي: الرُّحَّل الَّذين هم من أصل عربي.

(2) ديليتش ـ أين كان موقع الجنَّة، لايتزيغ 1881م، ص295.

(3) ديليتش المرجع المذكور، ص296 وما يليها.

حرباً كبيرة على العرب الَّذين كانوا يسكنون الخيام في الأراضي الآشورية[1]. وقد برهن ديليتش[2] على وجود قبائل بدوية عربية بالذات منذ عهد الآشوريين، معتمداً على عدد من الشواهد البَدَهية في المراجع الآشورية.

مقالة سترابو حول الرعاة المتنقلين في بلاد ما بين النهرين

أمَّا أوَّل ذكر مفصل عن الأوضاع السياسية وحال الشعوب البدائية في بلاد ما بين النهرين فنجده في القرن الأوَّل بعد الميلاد عند سترابو، الَّذي يذكر حرفياً أنَّ كامل بلاد ما بين النهرين جنوب الجبال الكردية وشمال شبه الجزيرة العربية حتَّى صحراء النفود الكبرى كان يقطنها عرب يسكنون في الخيام، ويقول: «إنَّهم لصوص ورعاة يتنقلون بسهولة إلى مناطق أُخرى إذا نفدت المراعي وفرص النهب».

كانت الطريق التجارية الكبيرة بين سوريا وسلوقيا في بلاد بابل تمر عبر مناطق هذه القبائل البدوية المقيمة في بلاد ما بين النهرين، وكانت هذه القبائل تحافظ على السلم مع القوافل العابرة

---

(1) ديليتش المرجع المذكور، ص396.

(2) لم تكن عادات البدو الأوَّلين تختلف عن عادات البدو اليوم إلاَّ قليلاً. قارن صورة المردوف على ظهر الناقة من قوجون جيك نقلاً عن بلايس اللوحة 4,55 في الصورة التابعة للفصل 14، ص185.

لكنَّها تفرض «رسوماً جمركية». وكانت القوافل تفضل الطريق عبر الصحراء على الطريق المحاذية لدجلة والفرات؛ لأنَّ مختلف الأمراء الصغار المقيمين هنا يطالبون برسوم أعلى على البضاعة العابرة، ويذكر سترابو في الكتاب السادس عشر في الفصل الثالث مرَّة أُخرى الرعاة المتنقلين في بلاد ما بين النهرين ويصفهم بأنَّهم لا يكادون يمارسون الفلاحة، وفي مقابل ذلك يُربُّون قطعان الماشية من جميع الأنواع خاصَّة منها الإبل، كما يذكر وجود أمراء قبائل عربية إلى جانب البدو على ضفاف نهر الفرات حتَّى بابل، ويذكر وجود إمارات عربية صغيرة في سوريا حيث يعيش العرب في مدن، ويتميزون على سكَّان بلاد ما بين النهرين من أهل الخيام بشيء من التحضر بسبب اختلاطهم بالسوريين، وربَّما كان هؤلاء المتحضرون بدواً سابقاً، ثمَّ دفعتهم قبائل أقوى منهم إلى مغادرة المراعي واللجوء إلى أطراف الصحراء، ولمَّا أحسّوا بالضعف عن مواصلة الترحال استقرّوا وتقبَّلوا شيئاً من الحضارة.

يشهد التاريخ أنَّ شعوباً عربية قد كوَّنت ممالك أو دولاً ذات شأن في حالات عديدة بعد أن كانت تعيش حياة تنقُّل دائم، والمثال على ذلك: الغساسنة في حوران، واللخميون في الحيرة عند أسفل الفرات[1].

---

(1) مملكة odenate في تدمر، ومملكة الحضر في بلاد ما بين النهرين الَّتي لا يعرف عن تاريخها شيء كثير، وكان معظم سكَّانهما من الآراميين.

ولم تتغيَّر الأوضاع في الصحراء عبر القرون التالية عمَّا ذكره سترابو؛ فقد تواصل نزوح القبائل العربية من شبه الجزيرة إلى الشمال حيث أزاحوا الشعوب المقيمة هناك والَّتي انقرضت شيئاً فشيئاً، أو استقرت عند أطراف الصحراء.

تاثير الإسلام، قبيلة طيء

قبل التغيير الكبير الَّذي أحدثه ظهور الإسلام في سوريا وفي الصحراء العربية، كان بنو طيء يمثلون أكبر قبيلة لا تزال بقاياها موجودة إلى اليوم[1]. وقد بلغت هذه القبيلة درجة كبيرة من الأهمية حتَّى أصبح السوريون وحتَّى الصينيون يطلقون اسم هذه القبيلة على جميع العرب.

نزوح العرب

وتواصل نزوح العرب من شبه الجزيرة إلى الشمال بعد ظهور الإسلام، ولا تزال بقايا من قبيلة قيس الَّتي شاركت في هذه الحملات إلى اليوم في شمال بلاد ما بين النهرين، كما توجد بقايا قبال حجازية خاصَّة وسط دجلة وأسفله مثل: الخزرج، وبني

---

(1) أصل قبيلة «طيء» من جنوب شبه الجزيرة العربية، أنظر فيستنفيلد في كتابه ـ لوحات نسب القبائل والعائلات العربية، المجلد الثاني، ص6 و7 وأنظر ديفيريا في مقالته ـ أصل الاتجاه الإسلامي في الصين، في مئوية مدرسة اللغات الشرقية، باريس 1895م.

تميم، وبني لام، ولم يتوقف هذا النزوح في العصور الوسطى وحتَّى العصور الحديثة، وقد حدثت في القرون الأخيرة تحركات ذات أهمية متميزة نستقي معلومات عنها ممَّا لا يزال متداولاً من القصص حولها.

شمر في البلاد العربية

وقبيلة شمر هي أوَّل قبيلة مسَّها هذا التحوُّل، ونجدها إلى اليوم ذات نفوذ لا يُنازع في بلاد ما بين النهرين، كما أنَّها تمثّل الثقل الأكبر في نجد حيث أصبح ابن رشيد ـ وهو أحد رجال شمر ـ سيِّداً على كامل وسط شبه الجزيرة العربية بعد إخضاع الوهَّابيين، وقد جمع بالجريف عند سفره إلى نجد سنة 1862م و1863م[1] في المكان ذاته معلومات عن تاريخ نشوء قبيلة شمر، حيث يبدو أنَّ عدداً من القبائل العربية خاصَّة منها بنو تغلب وبنو عبس والحوازم، انضم بعضها إلى بعض عند جبل شمر، وكوَّنت قبيلة حملت اسم هذا الجبل، وسادت منذ ذلك الوقت وسط شبه الجزيرة العربية، وقد حدث هذا في العصور الوسطى إثر تقلبات ترجع إلى ظهور الإسلام على ما يبدو. أمَّا اسم شمر ذاته فيرجع أصله إلى جنوب شبه الجزيرة[2]؛ ففي منتصف القرن السابع عشر

(1) قارن فيتزشتاين، المجلد 22 ص90، ودافتي، المجلد الثاني، ص37 وما يليها.

(2) قارن لوحات النسب عند بريدو ـ القصيدة الحميرية.

تحرَّكت أجزاء من هذه القبيلة ـ الَّتي كانت آنذاك كبيرة جداً بدون شك ـ في اتجاه الصحراء السورية الَّتي لا بدَّ أنَّهم اعتبروها أرضاً موعودة، ومراعي مرغوباً فيها بسبب كثرة أعشابها في الربيع والصيف وغزارة مياهها مقارنة بأوضاع وسط شبه الجزيرة.

هجرة شمر إلى سورية

كان عدد من القبائل مثل: بني عمور، والحديديين يسكنون البوادي السورية في ذلك الوقت، ولم يذكر الرَّحَّالة في ذلك العهد إلاَّ عدداً قليلاً من أسماء تلك القبائل للأسف، غير أنَّ قبيلة الموالي كانت آنذاك أقوى قبيلة في الصحراء السورية، وكانت لهم مع شمر وقائع دامية على مدى زمن طويل[1]، وقد انتصر شمر ودفعوا الموالي إلى منطقة العلاء في الشمال الغربي من سوريا، شرق حماة وحلب، حيث نجدهم يمارسون النشاطات الزراعية إلى اليوم[2]، ويذكر بلانتس أنَّ أصل الموالي يرجع إلى أحد أبناء الخلفاء الأمويين، وقد جاء مبعوثاً إلى بلاط الإمبراطورة تيودورا وحاز إعجابها إلى درجة أنَّها أجزلت له العطاء، ووهبته العديد من

---

(1) أنظر بالجريف في كتابه ـ يوميات سنة من الترحال عبر وسط وشرق البلاد العربية، المجلد الأوَّل، ص118.

(2) أنظر كتاب بوركهاردت، ص311، حيث يذكر أنَّ الموالي فقدوا سيادتهم على الأراضي المحيطة بحلب وحماه في بداية القرن التاسع عشر وتولاَّها بنو عنزة.

الخدم حتَّى استطاع أن يشكل من حوله قبيلة، ثمَّ أصبح مستقلاً واستقر في الصحراء[1].

وبعد فترة قصيرة من استحكام أمر شمر في سوريا ظهرت موجة جديدة من النازحين من شبه الجزيرة وهم عنزة ونجد بقاياهم في جنوب نجد إلى اليوم، ويدلُّ اسم مدينة عنيزة القائمة هناك على الموطن الأصلي لهذه القبيلة[2].

وليس هناك دليل على نزوح قبائل أخرى بعد شمر وعنزة من الجنوب إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين، ولذلك يُرجَّح أنَّ جميع القبائل الأخرى الَّتي نجدها اليوم في هذه المناطق هي من بقايا البدو الَّذين كانوا يجوبون هذه الأراضي منذ القِدَم.

وقد نشبت معارك دامية بين عنزة وشمر انتهت بتخلِّي شمر عن سوريا لعنزة [3] والهجرة إلى بلاد ما بين النهرين الَّتي كانوا يعرفون

---

(1) أنظر بلانتس، المجلد الأوَّل، ص176.

(2) يُعدّ بنو عنزة قبيلة من أعرق القبائل العربية، وقد سبق ذكرها منذ عهد بعيد، وأصلها من بني ربيعة وعلى وجه التحديد من بني وائل أعداء [النبي] (ص) أنظر بوركهاردت، ص310، ويعقوب في: حياة البدو القدماء، الطبعة الثانية، برلين 1897م، ص33: ويذكر ابن الأثير سنة 1191م، الجزء 12، ص67: بنو عنزة الَّذين يسكنون عشرين قرية على الجبال الرابطة بين الحجاز واليمن، وهي المنطقة الَّتي تُسمَّى اليوم عسير.

(3) لا تزال عنزة إلى اليوم القبيلة السائدة في صحراء سوريا، وقد تجرَّأوا في الخمسينيات على غزو مدينة حلب ونهبوها نهباً، وأخذوا معهم عدداً لا يُحصر من الأشياء الثمينة الَّتي يُرجَّح أنَّهم سارعوا إلى بيعها؛ لأنَّهم لا يعرفون سبيلاً آخر إلى الاستفادة منها.

دون ريب من غزواتهم السابقة لها خصوبة أراضيها.

عنزة، شمر يعبرون نهر الفرات

ثمَّ دخلوا شوطاً جديداً من الترحال، فعبروا نهر الفرات وأخضعوا شيئاً فشيئاً كامل بلاد ما بين النهرين من خط عرض بغداد إلى سلاسل الجبال الكردية في الشمال، أمَّا الَّذين سكنوا هذه المناطق إلى ذلك الحين فقد اضطر فريق منهم إلى التراجع إلى خارج هذه المناطق مثل قبيلة طيء الَّتي نزح معظمها إلى بلاد ما بين النهرين، وانقسمت إلى قسمين: استقر أحدهما في شمال سنجار، وذهب القسم الآخر إلى ما وراء دجلة جنوب شرقي الموصل محاذياً لنهر الزاب، واضطر الفريق الثاني الَّذي يتألف من مجموعة من القبائل إلى التخلي عن حياة البداوة، واستقر في منخفضات الوديان، ونذكر منه خاصة قبيلة الجبور الكبيرة الَّتي انقسمت بدورها إلى عدَّة فروع نزلت عند دجلة والخابور، ونزل بعضها عند نهر الفرات، ونجد بعد ذلك القبائل الصغيرة مثل البقارة والعقيدات الَّتي أنشأت قرى استقرت فيها عند الخابور والفرات.

وقد تكوَّنت هذه التجمعات الجديدة للقبائل البدوية في سوريا وبلاد ما بين النهرين في أوَّل القرن الماضي على آخر تقدير وظلَّت على حالها إلى اليوم[1]، ولا يزال نهر الفرات يمثل الفاصل بين

---

(1) لا بدَّ أن يكون قد حدث نزوح آخر للشمر من وسط شبه الجزيرة العربية إلى بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، قارن لايارد، نينوى وبابل، ص894.

القبيلتين الكبيرتين المهيمنتين: عنزة في سوريا، وشمر في بلاد ما بين النهرين.

أحدث الأمثلة عن نزوح البدو
«بنو هنادي»

أمّا طريقة نزوح القبائل البدوية في العصر الحديث فإنّ تاريخ قبيلة هنادي الصغيرة يضرب مثلاً واضحاً على ذلك؛ فالموطن الأصلي لهذه القبيلة هو المغرب[1] الّذي نزحت إليه من شبه الجزيرة العربية في زمن غير معروف، ونجدها بعد ذلك في الجزء الغربي من دلتا النيل قرب الإسكندرية، إلاّ أنّ القبيلة الأقوى وهي قبيلة ولد علي الّتي لا تزال إلى اليوم بين سيوا ومصب النيل أخرجت قبيلة هنادي من مناطقها، فتوجّهت في بداية هذا القرن إلى المناطق الشرقية من دلتا النيل، وعندما زحف إبراهيم باشا في الثلاثينيات بجيوشه المصرية على سوريا رافقته قبيلة هنادي بصفة فرسان لا ينتمون إلى الجيوش النظامية، ووصلت معه إلى أقصى مناطق سوريا الشمالية، ولما غادر إبراهيم الباش سوريا بقيت قبيلة هنادي ـ ولا تزال ـ تعيش إلى اليوم حياة شبه بدوية بين حلب والفرات حيث وجدها زاخاو سنة 1880م[2]، كما وجدها أيضاً جنوب دمشق، وبقي جزء من القبيلة في مصر، ولا يزال يوجد عدد

---

(1) أنظر بوركهاردت، هوامش، ص318.

(2) أنظر زاخاو، ص143.

يبلغ 27103 نسمة شرق الدلتا في محافظة الشرقة بالذات[1]، وفي السنين الأخيرة عادت بعض العائلات من هذه القبيلة إلى النزوح من مصر إلى سوريا، والاستقرار قرب مدينة حماة.

ونذكر مثالاً على توسع نزوح القبائل العربية: قبيلتَي بني سليم وبني هلال، فقد كانت هاتان القبيلتان من السابقين في الدخول إلى سوريا تحت راية الإسلام، واستقرتا حيناً من الدَّهر في حوران، ثمَّ أُوعِز إليهم بالرحيل إلى مصر ففعلوا، ونزلوا عند دلتا النيل، لكن ميولهم إلى اللصوصية جلب إليهم سخط السكَّان فاضطروا إلى الانتقال إلى صعيد مصر، وهنا أيضاً لم يتوقف سوء تصرفهم، إلاَّ أنَّ وزير الخليفة الفاطمي المستنصر حملهم زهاء سنة 1050م على النزوح إلى غرب شمال إفريقية[2]، ووعد كُلاً منهم بقطعة من الذهب وناقة؛ فتوغَّلوا شيئاً فشيئاً حتَّى بلغوا المغرب الأقصى، ويرجَّح أن يكونوا هم السبب في تعريب شمال إفريقية.

شمر في بلاد ما بين النهرين

يقول شيوخ شمر: إنَّ أصلهم يعود إلى زمن النبي محمد ﷺ ولذلك فإنَّهم يطلقون على أنفسهم اسم «بيت محمَّد»، ويزعمون أنَّ جدهم الأوَّل كان صحابياً من الأنصار.

---

(1) قارن ـ التعداد العام لمصر، غرة يونيو 1897م، القاهرة، المجلد الثالث، ص11.

(2) أنظر مولر ـ الإسلام، المجلد الثاني، ص628.

لـم يكـن وضـع شـمر في بلاد ما بين النهرين مريحاً منذ البداية، فقد كان لهم أعداء في كل مكان، وكان عليهم أن يخوضوا حروباً متواصلة، ليس مع القبائل الَّتي أخرجوها من ديارها فحسب، وإنَّما يرجَّح أن يكونوا قد تحاربوا أيضاً مع الأتراك، وقد أصبح لهم فيما بعد أعداء على قدر كبير من الأهمية والقوَّة وهم التركمان والأكراد، والشركس أيضاً في الفترة الأخيرة. وتذكر القصص أنَّ شيوخهم تميَّزوا خلال هذه الحروب الكثيرة بالخصال العربية الأصيلة، ولا شك أنَّ عدد القبيلة الَّذي لا يزال يبلغ إلى اليوم عشرات الآلاف من المقاتلين، رغم جميع الوقائع الدامية الَّتي خاضوها، هو الدليل على قوَّة إرادة غير عادية يتميَّز بها رجال هذه القبيلة، ومن ناحية أُخرى يغلب الظن أنَّ عدداً من القبائل الَّتي خضعت للشمر ـ خاصَّة منها القبائل الصغيرة ـ قد التفَّت حولهم واندمجت معهم، رغم أنَّ العداوة الَّتي لم تخمد نارها كلياً ما زالت تنفجر في كثير من الأحيان في شكل اصطدامات متجددة.

وقد برز شمر لأوَّل مرَّة كقوَّة سياسية في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر أثناء اضطرابات بغداد، فقد شكل داود باشا حاكم بغداد سنة 1830م قوَّة عسكرية منظمة تنظيماً أوروبياً بغية الاستقلال، واتبع في ذلك مثال محمَّد علي باشا في مصر، وظهر وباء الطاعون في الفترة نفسها سنة 1830م فقضى على معظم

سكَّان بغداد، وذهبت ضحيته جموع غفيرة من جنود داود باشا، وعلاوة على ذلك فاض نهر دجلة وغمر المدينة بكاملها، وعندما جاءت نهاية فصل الحر الَّتي وضعت حدّاً للوباء وللفيضانات، جاء على باشا الَّذي عيَّنه الباب العالي مؤخراً حاكماً على حلب ليتولى إدارة بغداد، ولما تصدَّىٰ له داود باشا لجأ علي باشا إلى صفوق شيخ شمر وطلب منه المساعدة، ولم يكن صفوق في الواقع إلاَّ شيخاً لفرع من شمر، لكنَّه كان فرعاً متميِّزاً، وهو فرع الجربا الَّذي أصبح يطلق على كامل شعب شمر.

دور شمر في اضطرابات بغداد سنة 1830م «الشيخ شلوش»

استطاع علي باشا أن يدخل بغداد بمساعدة الشيخ صفوق، ولم يتمكَّن داود باشا من إنقاذ حياته إلاَّ بتسليم جميع ثرواته، وانتقل إلى القسطنطينية لقضاء ما بقي من أيَّامه دون التعرُّض إلى المضايقة، وبعد دخول علي باشا إلى بغداد طالبه الشمر بالجزاء الموعود لكنَّه لم يستطع أو ـ لم يرغب ـ في الوفاء بوعده، الأمر الَّذي جعل شمر ينسحبون إلى أواسط بلاد ما بين النهرين، وينصرفون إلى نهب القوافل، ثمَّ توجهوا إلى بغداد وحاصروها مدَّة ثلاثة أشهر، إلاَّ أنَّهم اضطروا إلى الرجوع إلى الصحراء متوعّدين بالعودة في السنة التالية، وحيث إنَّ علي باشا لم يكن يملك قوَّة عسكرية يجابه بها شمر فقد طلب المساعدة من قبيلة

عنزة وسعى إلى انقسام قبيلة الشمر إلى شقين متعاديين تطبيقاً للمقالة الشهيرة «فرّق تسدْ».

واستطاع علي باشا أن يمكّن أحد أبناء إخوة صفوق ـ ويدعى شلوش ـ من نفوذ كبير جعل فريقاً من شمر يبايعه شيخاً عليه، ولكن الفريق الأكبر بقي على ولائه للشيخ صفوق، وكانت قبيلة عنزة في هذه الأثناء قد وصلت في جيش يُعدّ خمسة وثلاثين ألف رجل طمعاً في المراعي الخصبة الَّتي كانت في حوزة شمر، لكن علي باشا أوجس خيفةً من هذه القوَّة الَّتي طغت على بلاد ما بين النهرين فأعلن أنَّه لم يعد في حاجة إلى مساعدتهم، لكن عنزة لم يكترثوا لإعلانه ونزلوا قرب بغداد؛ فعاد علي باشا إلى الشيخ شلوش يلتمس منه العون، وحتَّى العدو القديم الشيخ صفوق أرسل ألفَي رجل لمناصرة ابن أخيه، ذلك أنَّ حرباً كهذه تهدد شرف قبيلة شمر بكاملها، وانتصر عنزة في هذه الحرب، وصبُّوا غضبهم خاصَّة على رجال الشيخ شلوش الَّذي وقع هو نفسه أسيراً ومزّق إرباً، أمَّا جنود السلطان فقد كان حظهم أوفر من حظ رفاقهم من البدو، ولم تنسحب العنزة إلاَّ بعدما استنجد علي باشا بقبيلة زبيد الَّتي كانت مستقرة في جنوب بلاد ما بين النهرين منذ القِدَم، والَّتي وصلت إلى بغداد بين شتاء عامَي 1834 و1835م.

عاد الشيخ صفوق عندئذٍ إلى السيادة على شمر كافة، وحظي بالقبول الحسن لدى الحكومة التركية الَّتي لم تنسَ فضله في القضاء

على محمَّد علي ميرزا ابن ملك الفرس فتح علي شاه في غزوة مشهودة[1]، وقد سمت مكانة الشيخ صفوق في منتصف الثلاثينيات حتَّى أصبح يلقَّب بـ«ملك الصحراء»، وقد استعمل الشيخ صفوق نفوذه بطريقته الخاصَّة دون شك؛ ففرض الضرائب على بلاد ما بين النهرين كاملة، ونهب القوافل ومناطق الحدود الصحراوية، وتصرّف تصرُّف الأمير المستقل تجاه الباب العالي.

الشيخ صفوق والحكومة

شرع السلطان محمود الثاني في إصلاح الإمبراطورية العثمانية كافة؛ فكان لا بدَّ من وضع حد لهذه الأوضاع أيضاً، وقد سبق له أن تخلص بالحيلة أو بالقوَّة من الحكَّام الصغار الَّذين كانوا يعيشون في شبه استقلال في آسيا الصغرى ويلقبون بـ«الديرى باي»، وتعني العبارة «أمراء الوديان»، ومنذ أن أصبح السلطان يملك جيشاً منظماً تنظيماً أوروبياً خاصَّة بفضل جهود ضباط من بروسيا[2]، اتجه نظره إلى المناطق الشرقية فأخضع أوَّلاً الأمراء الأكراد، ثمَّ بدأ يسعى إلى فرض وإرساخ النظام في بلاد ما بين النهرين، ولمَّا لم يكن من السهل التغلب بالقوَّة على الشيخ صفوق؛ فقد لجأ محمَّد رشيد باشا قائد القوات التركية إلى

---

(1) أنظر لايارد ـ نينوى وبقاياها، المجلد الأوَّل، ص94.
(2) أنظر مولتكه، ص254 ـ 298.

استدراجه عن طريق الغدر وأسْره وإرساله إلى القسطنطينية، إلاَّ أنَّه استطاع أن يتحرَّر بعد بضعة أشهر، وأن يرجع إلى بلاد ما بين النهرين، وأصبح الشيخ صفوق مصدر رعب لمقاطعتَي الموصل وبغداد، وتوسَّعت غزواته حتَّى بلغت نهر دجلة في المناطق الشرقية.

وقد وقف الشيخ صفوق العدو اللود للأتراك بين الحين والآخر إلى جانب الباب العالي عندما كان ذلك يتماشى مع سياسته الشخصية، وقد أخرج قبيلة هنادي الَّتي جاءت كما ذكرنا سنة 1840م مع إبراهيم باشا إلى شمال سوريا واستقرت في رأس العين ـ من ديارها[1]، وكان كل طموح الشيخ صفوق موجَّهاً إلى استرجاع نفوذه الشخصي وسيادته المطلقة على بلاد ما بين النهرين، ولأنَّ القوَّة العسكرية التركية الجديدة قد تعرَّضت إلى إبادة تامَّة على أيدي الجيوش المصرية في موقعة نزب سنة 1839م؛ فإنَّ الباب العالي لم يكن قادراً على مجابهة الشيخ صفوق بالقوَّة، فالتجأ ثانية إلى محاولة التفريق بين شمر عن طريق تعيين نجرس[2] أحد أبناء إخوة صفوق شيخاً على القبيلة.

---

(1) أنظر انزوورث ـ رحلات في آسيا الصغرى، المجلد الثاني، ص265.
(2) يطلق روس عليه اسم «نجرب» أنظر ريتر ـ المجلد 11، ص473 من المرجع المذكور.

الشيخ نجرس ونهاية الشيخ صفوق

ازداد نفوذ نجرس وأصبح يشكل خطراً، عندئذٍ تواطأ نجيب باشا والي بغداد مع الشيخ صفوق، ووعده بمساندته بقوَّة عسكرية كبيرة في مجابهة خصمه العنيد، وهكذا ارتكب صفوق خيانة لا تغتفر عند العرب ليتخلص من منافسه القوي، فقد دعا نجرس لزيارته لتسوية الخلافات بينهما بالَّتي هي أحسن، ولم يلبّ نجرس هذه الدعوة إلاَّ بعدما عاهده فرحان ابن الشيخ صفوق على ضمان سلامته، وكان هذا الأخير يحظى بتقدير كبير بين رجال شمر، وقد تمَّت هذه الحادثة على النحو الآتي: لمَّا كان الشيخ نجرس واثقاً من «عهد العربي» الَّذي أعطاه إيَّاه الشيخ صفوق فقد توجَّه إلى ديار هذا الأخير بدون حاشية تحميه، ولكن عندما لاحظ أنَّ صفوقاً لم يهبّ واقفاً للسلام عليه عند دخوله أيقن أنَّه لا محالة هالك، إلاَّ أنَّه جلس رغم ذلك في الخيمة بكلّ هدوء، ولكن الشيخ صفوق ما لبث أن استلَّ سيفه رغم رجاء ابنه له بعدم الغدر بالضيف بهذه الطريقة المشينة، وقطع رأس ابن أخيه، ولم ينجُ فرحان هو الآخر من سخط أبيه إلاَّ بأعجوبة بسبب حمايته للعدو البغيض.

غير أنَّ صفوقاً لم ينعم بهذا الانتصار لمدة طويلة، فقد أرسل نجيب باشا الَّذي كان قد تسلَّم كتاباً يقول فيه صفوق: «إنَّه قام بهاذ الاغتيال لفائدة الباب العالي» الَّذي أرسل القوَّة العسكرية الموعودة والَّتي كان الشيخ صفوق ينوي بمساعدتها إخضاع شمر

المستنكرين لحادثة الغدر، لكن بعثة الباشا كانت تهدف إلى أمر آخر، فما كاد الشيخ صفوق يبتعد عن خيمته حتَّى أحاط به الجنود الأتراك وفتكوا به، ثمَّ أرسلوا رأسه إلى بغداد[1].

رغم جميع أعمال الغدر الَّتي قام بها الشيخ صفوق في سنواته الأخيرة، فإنَّه لا يزال إلى جانب جده الَّذي يحمل الاسم نفسه بطلاً قومياً ليس للشمر فحسب وإنَّما لجميع بدو شمال شبه الجزيرة أيضاً، ولا يزال النَّاس إلى اليوم يتداولون العديد من القصص حول شجاعته وكرمه، أمَّا أعمال الغدر فقد استطاع أهله إخفاءها عن قصد، ولم يخبر الشيخ فارس زاخو[2] إلاَّ عن حادثة الاغتيال الَّتي أودت بحياة الشيخ صفوق.

أبناء الشيخ صفوق: الشيخ فرحان والشيخ عبد الكريم

خلَّف الشيخ صفوق ستة أبناء، هم: فرحان[3]، وعبد الرَّحمٰن، وعبد الكريم، وعبد الرزَّاق، وميوم، وفارس.

تتفق أخبار الرحَّالة الَّذين التقوا الشيخ فرحان على أنَّه كان ذا

---

(1) أنظر لايارد ـ المجلد الأوَّل، ص114.

(2) أنظر لايارد ـ المجلد الأوَّل، ص301.

(3) يذكر لايارد أيضاً، نينوى وبابل، ص254، أنَّ فرحان هو ابن الشيخ صفوق كبير شيوخ شمر، ويذكر بيترمان في كتابه ـ رحلات، المجلد الثاني، ص338 أنَّ فرحان هو كبير الشيوخ، والابن الأكبر لصفوق بلا ريب.

طبع هادىء مسالم يكاد يغلب عليه الخوف، فقد كان على عكس إخوته الَّذين يتميَّزون بقدر كبير من الحيوية، يميل إلى البقاء «وراء الستار»، ويسعى قدر الإمكان إلى المحافظة على علاقة طيبة مع الأتراك، وقد حثَّه هؤلاء على اتباع سياسة أكثر حزماً، كما حصل في السبعينيات على لقب باشا وعيِّن له راتب سنوي، أمَّا اليوم، بعد بضع سنين من وفاته؛ فقد ذهب اسمه طيّ النسيان، ويذكر البلانتس أنَّه كان يطلق عليه اسم «كديش» الَّذي يقترب معناه من معنى «هجين» استخفافاً به؛ لأنَّ أمّه كانت حضرية من بغداد ولم تكن من نساء البدو، وقد تزوج فرحان بدوره عدداً من النِّساء الكرديات وغيرهن ممَّن لا يتمين إلى البدو.

الشيخ ميوم، الشيخ عبد الكريم، الصراع ضد الأتراك

ولا نعرف عن عبد الرَّحمٰن وميوم إلاَّ القليل، ويبدو أنَّهما سقطا في المعارك الدامية الَّتي نشبت مع قبائل أُخرى أو مع الأتراك، وبعد وفاة صفوق بمدة وجيزة تولى ابنه الثالث عبد الكريم سيادة شمر، وكان يتّصف على غرار أبيه بجميع ميزات الشيخ البدوي الأصيل من شجاعة وكرم وسماحة، وقد لقي نهاية مأساوية أيضاً على غرار أبيه، ويذكر زاخاو أنَّ عبد الرزَّاق الأخ الأصغر لعبد الكريم تخاصم ذات يوم مع حاكم ماردين التركي، ووصل به الأمر إلى الاعتداء عليه بالضرب، ثمَّ ركب فرساً من خيل الباشا وفرَّ إلى الصحراء، وقد كانت هذه الحادثة بداية صراع دموي بين

شمر والأتراك، فلقي عبد الرزاق حتفه في إحدى الوقائع العديدة، وكان على عبد الكريم أن يثأر لأبيه وأخيه، فدام الصراع بينه وبين الأتراك سنينَ طويلة، ونهب شمر جميع المناطق المسكونة في كامل بلاد ما بين النهرين حتَّى إنَّ سكَّان المدن الكبيرة أصبحوا لا يتجرَّأون على مغادرتها، ولم تسلم حتَّى مدينة الموصل من النهب والسلب، وفي النهاية خان الحظ الشيخ عبد الكريم فلجأ إلى قبيلة المنتفق (المنتفك) في جنوب بغداد، وهناك نال جزاء الغدر الَّذي ارتكبه أبوه تجاه نجرس، ويُقال: إنَّ فرحان نفسه كشف للحكومة التركية عن مخبأ أخيه عبد الكريم، وإنَّ شيخ المنتفك سلَّمه إلى الباب العالي، وسِيقَ إلى مدينة الموصل، وهناك تمَّ إعدامه شنقاً على الجسر سنة 1868م.

حداثة الشيخ فارس

أصبح فرحان الشيخ الأكبر على شمر كافة ـ هكذا ـ وبدون منازع، وكان فارس لا يزال صغيراً غير قادر على التصرف في شؤون قبيلته، وقد فرت أُمّه عمشة ـ وهي من بنات قبيلة طيء المرموقة، وكانت تعتبر بطلة مثل زوجها الشيخ صفوق ـ بعد موت زوجها إلى أقاربها داخل شبه الجزيرة، وأخذت معها ابنها فارساً.

كان أقارب شيخ شمر في بلاد ما بين النهرين يملكون في نجد

آباراً وواحات، وهناك لقيت عمشة حفاوة الاستقبال، وأمن الحماية عند ابن رشيد الَّذي كان يتمتع بنفوذ كبير بين شمر، ولم ترجع إلى بلاد ما بين النهرين إلاَّ في السبعينيات عندما ترعرع فارس ودخل طور الرجولة.

وما لبثت مجموعات كاملة من شمر أن انفصلت عن فرحان الَّذي لم يكن محبوباً بسبب قلَّة مروءته وخموله، والتفَّت حول الشيخ الجديد الَّذي يضاهي أباه وأخاه عبد الكريم في التحلي بخصال البداوة الأصيلة، وتجنَّب فارس في البداية طريق أخيه فرحان الَّذي كان يقيم عند دجلة، وتراجع مع أتباعه إلى أقصى شمال بلاد ما بين النهرين، غير أنَّ نفوذه تزايد بسرعة إلى درجة أنَّه استطاع إخضاع قبائل مناطق الخابور والبليخ شبه المستقرة ومجابهة أخيه الأكبر، وبذلك اندلع صراع بين الأخوين كان يشبّ تارة ويخمد طوراً، إلى أن انتهى بتقسيم بلاد ما بين النهرين.

من الآن فصاعداً أصبح الخط بين الموصل والميادين على شاطىء الفرات يمثِّل الحديد بين فريقَي شمر: فرحان في الجنوب الشرقي، وفارس في الشمال الغربي، وسوف أطلق على رعايا فرحان شمر الجنوب، وعلى رعايا فارس شمر الشمال من هنا فصاعداً.

تقسيم بلاد ما بين النهرين
شمر الشمال وشمر الجنوب، فارس باشا

خلّف فرحان العديد من الأبناء بلغتني أسماء لأحياء منهم وهم: العاصي، ومجول، وجار الله، وأُمّ هؤلاء الثلاثة من قبيلة عمود، وشلال، وعبد العزيز، وفيصل، وأُمّ هؤلاء الثلاثة من قبيلة وهايس طيء، وعبد المحسن، وهايس، وثويني، وأُمّ هؤلاء الثلاثة من قبيلة زوبع، وسلطان، ومطلق، وحميدة وهم من أُمّهات مختلفات، وبدر، وأحمد، وزيد، وميزر، وهؤلاء الأربعة من أُمّ واحدة تزوجت بعد وفاة فرحان أخاه فارساً لكنّها لم تنجب منه، وهي تعيش اليوم مع أبنائها من الزواج الأوّل، وقد نشب الخصام بين الإخوة على خلافة الأب، وعرف كل منهم كيف يضمن لنفسه أتباعاً من بين القبائل، وتنافس عدد منهم عند والي بغداد للحصول على لقب باشا العربان بعد وفاة والدهم طمعاً في كسب ولاء جميع شمر، أمّا الباب العالي فما كان عليه إلاّ أن يبقى وفياً لسياسته القديمة في تداول تبجيل الواحد من الإخوة على الآخرين لبثّ العداوة بينهم، وإنهاك قوّة شمر الجنوب بذلك.

ويبدو أنّ شمر الجنوب يفوقون اليوم شمر الشمال عدداً، غير أنّ هؤلاء يتبعون الشيخ فارساً كقائد أوحد، ويتمتعون بناءً على ذلك بقوّة أكبر، وقد كانت العلاقة بين فارس والباب العالي حسنة عند زيارتي له، لكنّه كان عند زيارة بلانتس له متردّداً في الارتماء

بين أحضان الأتراك، وكان يتحدَّث باحتقار عن أخيه فرحان الَّذي قبل لقب باشا من الأتراك، وكان الشيخ فارس بعد ذلك بسنتين عند زيارة زاخو له، قد انضم إلى صفوف الأتراك الَّذي عرفوا كيف يستميلونه بالألقاب الرنانة، فبعد حصوله على لقب قائم مقام الشمر، حصل على لقب باشا بعد ذلك ببضع سنين فتساوى بذلك مع منافسة فرحان، في هذه الأثناء خضع فارس خضوعاً تاماً للحكومة التركية، وامتثل لِدفع الضرائب، وقد بلغ به الأمر أن فكَّر بالذهاب إلى القسطنطينية، وتقديم الولاء إلى السلطان مثلما فعل أخوه فرحان وعدد من كبار شيوخ القبائل البدوية من قبل.

أبناء فارس

تزوج فارس عدداً كبيراً من النِّساء على التوالي، وكان يسعى إلى إنجاب أكبر عدد ممكن من الأبناء ويحسد أخاه فرحان في هذا الصدد، وكان أكبر أبنائه شاباً ضعيفاً ليّن البنية سبق أن ذكره زاخاو كطفل مريض عمره سنة ونصف، أمَّا ابنه المفضَّل فكان صبياً في الثانية عشرة من عمره يتميَّز بالجرأة والنباهة، وهو الَّذي جاء لاستقبالي في نصيبين وربطتني به أواصر الصداقة فيما بعد، ويبدو أنَه يستطيع أن يصبح مثل الشيخ صفوق والشيخ عبد الكريم، إذ يحبه جميع شمر إلى حدِّ العبادة، ويتقبَّلون منه أسوأ أنواع الوقاحة، وأذكر أنَّه كان يتميَّز منذ ذلك العهد بالجرأة والاعتماد على النَّفس، ولكنَّه كان مع ذلك مهذباً مع الضيوف، أمَّا الابن

الأصغر للشيخ فارس فكان عمره بين سنة وسنتين.

ويتمتع شمر اليوم بسيادة مطلقة على بلاد ما بين النهرين من أورفة إلى منطقة بغداد، وتدفع أغلب القبائل المقيمة في هذه الأراضي الخوَّة للشمر، ولا تعفى من هذه الضريبة إلاَّ القبائل القادرة على الدفاع عن نفسها، أو الَّتي تربطها بالشمر علاقات متميزة بسبب القرابة، مثل قبيلة طيء، وكان الواجب حتَّى على القرى الكبيرة مثل نصيبين والميادين وعانة أن تدفع الخوَّة إلى أمد غير بعيد، وقد تخلَّت هذه المناطق عن هذا الالتزام عندما أمرت الحكومة التركية وحدات عسكرية صغيرة بالتمركز في هذه الأماكن، وليس هذا فحسب؛ بل أصبح الفلاحون المستقرون في المناطق المجاورة أيضاً في حل من دفع هذه الضرائب.

نفوذ شمر في بلاد ما بين النهرين، الخوَّة

يختلف مبلغ الخُوَّة كثيراً من حالة إلى أُخرى، إلاَّ أنَّه ينبغي على الفلاحين عامَّة دفع نسبة مائة وخمسين بالمائة من مبلغ الضرائب الَّتي يدفعونها إلى الحكومة التركية، ويقدِّمون إلى جانب النقود المواد الغذائية كالقمح والشعير والأرز، والملابس، والأسلحة والبارود، والتبغ والقهوة والسكر وغيرها، وليس نادراً أن تضطر قرى وقبائل بدوية ضعيفة واقعة على مناطق متنازعة بين قبيلتين قويتين لِدفع الخوَّة إلى الطرفين، مثلما يحدث لبعض قرى

الفرات مع شمر وعنزة ثمَّ يجب تقديم هدايا متميِّزة في كثير من المناسبات بالإضافة إلى الخوَّة، عند قدوم أحد الشيوخ أو بعض رجاله مثلاً، ويبدو أنَّ شمر يطالبون القوافل والقطعان بالمبالغ التالية: قرش ونصف ـ سبعة وعشرون فلساً ألمانياً ـ على كل مطية، من خمسة إلى عشرة غازي أو مائة إلى مائتي قرش ـ على كل قطيع غنم يضم مائتين إلى ثلاثمائة رأس، وقد كان على أهل تكريت إلى زمن غير بعيد دفع الخوَّة على أجهزة الري أيضاً.

وتتمثَّل الخوَّة بشكلها الحالي في أن يلتزم الشخص الَّذي تسلَّمها بحماية الشيخ أو القرية أو القبيلة الَّتي تدفع الخوَّة من غارات قبيلته، ويلتزم أيضاً بإعادة المتاع المسلوب إلى أهله إذا تعرَّضوا للاعتداء رغم الحماية، ويدفع الفرد لحاميه بضعة مجيدي سنوياً أو يعطيه عباءة.

ويوجد نوع آخر من الخوَّة يختلف عن الَّذي يدفع فيه طرف واحد، ويعقد هذا النوع بين الأنداد ويحمل الاسم الخوَّة نفسه، الَّذي يرجع أصله إلى «الأخوَّة»، وفي هذه الحال يكون لهذا الاستعمال تبرير أكثر من العلاقة الَّتي ذكرناها أوَّلاً، ونجد هذه العلاقة منتشرة بكثرة بين القبائل القوية وأعيان المدن، فيضمن شيخ القبيلة للسيضد الحضَري سلامة ممتلكاته في البادية حتَّى ضد القبائل الأُخرى في كثير من الأحيان، وفي مقابل ذلك يتولى السيِّد الحضَري رعاية مصالح الصديق البدوي تجاه الحكومة عند

الضرورة، ويحفظ له الأمتعة الثمينة في زمن الخطر، وفي هذه الحال يتبادل الطرفان الهدايا؛ فيقدِّم البدوي الخيل والإبل، ويقدِّم الحضري الملابس الثمينة والأسلحة ونحوها، وهكذا عقدت أنا أيضاً «الأخوَّة» مع الشيخ فارس في جوّ احتفالي وأمام الشهود.

ميثاق الخُوَّة بيني وبين الشيخ فارس

وفي ما يلي نصّ الرّسالة الّتي سلَّمني إيَّاها الشيخ فارس[*]:

«إنَّ حامل هذه الرّسالة رجل من أكبر أعيان عصرنا هذا، وهو البارون ماكس فون أوبنهايم، قنصل ملك ألمانيا[1]، وهو يقوم حالياً برحلة عبر المملكة الموقرة ـ حماها الله ـ لزيارة الأقاليم المجاورة: الموصل وبغداد والبصرة، وكل من يعترض طريقه أو يتسبَّب له في مصاعب فإنَّه يقترف بذلك ذنباً، ويجلب إلى نفسه الغضب والسخط؛ ولذلك فإنَّنا نحذّر كل من تبلغه هذه العبارات».

مجموعات القبائل البدوية

سأحاول فيما يلي وضع قائمة للقبائل البدوية في بلاد ما بين النهرين والمناطق الَّتي تحدها دون زعم بأنَّني أستوفي بذلك البحث

(*) أنظر نص الرسالة على ظهر الغلاف.

(1) أنظر النص العربي للرسالة: في هذه المناطق من الشرق الّتي يقلُّ فيها عدد الزوار الأوروبيين، يُعدّ كل قادم من أوروبا قنصلاً أو طبيباً.

في هذا الموضوع[1]؛ لأنَّ العرب ليس لديهم أي وعي بظاهرة الإحصاء، وأضِف إلى ذلك أنَّ بعض القبائل يحمل اسمين في آن واحد وبعضها يجب ذكره كفرع من قبيلة كبيرة، لكنَّها تطالب بتسجيلها كمجموعة مستقلة بسبب العداوة القائمة بين القبائل، وتستند معلوماتي في معظمها إلى ما بلغني عند الشيخ فارس وما حاول التأكد منه في الموصل وبغداد، **ولا تمثل مصدراً موثوقاً خاصة بالنسبة للقبائل الَّتي تدفع الجزية للشمر.**

قبائل غرب الخابور

1 ـ قبائل غربي الخابور استناداً إلى استكشافات في شدادة

1 ـ جيس (قيس): 2000 خيمة شرقي أورفه، تستقر في الشتاء على الجانب الغربي لجبل عبد العزيز.

2 ـ بني محمَّد: 500 خيمة صيفاً وشتاء في صحراء سروج وهي فرع من قبيلة قيس (جيس).

3 ـ برازية: وهم أكراد في الأصل، 1500 خيمة في صحراء

(1) وضع بوركهاردت ـ ملاحظات إلخ، ص324، ثمَّ من بعده بلانتس، المجلد الثاني، ص183 ثمَّ تويدي، ص121، إحصائيات تتعلَّق ببدو الصحراء السورية.

سروج، في الشتاء في الجنوب الغربي من أورفه، يدفعون الخوَّة للشمر.

4 ـ ولدة: 1000 خيمة، في الصيف عند قلعة جعبر، وفي الشتاء عند جبّ شعير شرقي سروج.

5 ـ عفاضلة: 2000 خيمة، في الصيف جنوب تل الحبشة، وفي الشتاء في الفيض غربي بليخ، ويدفعون الخوَّة للشمر وعنزة.

6 ـ أبو عساف: من 800 إلى 900 خيمة، في الصيف شمالي تل الحبشة، وفي الشتاء في الوعرة السهل الصخري شرقي البليخ، يدفعون الخوَّة للشمر وعنزة.

7 ـ تركمان: 700 خيمة، في الصيف حول الحمام بين الحبشة وتل الأبيض، وفي الشتاء في وادي الحمر شرقي الحمَّام، وبينه وبين رأس العين شرقي سلوق[1].

8 ـ مشهور: وهم في الأصل بقارة 100 خيمة، في الصيف في تل الأبيض، وفي الشتاء في وادي الحمر مع التركمان، يدفعون الخوَّة للشمر.

9 ـ أبو خميس: 2000 خيمة، في الصيف في منبج غربي

---

(1) كان التركمان منذ الحروب الصليبية مستقرين في شمال بلاد ما بين النهرين خاصَّة عند البليخ، أنظر ابن الأثير، المجلد العاشر، ص113. وأبو الفدا، المجلد الثاني، ص220.

الفرات، وفي الشتاء في عين البيضا على مسافة عشر ساعات من تل شدادة.

10 ـ طرفاوي: 2000 خيمة، صيفاً وشتاء على مسافة ست ساعات شرقي البليخ.

11 ـ دقرلية: 600 خيمة، في الصيف على مسافة يوم من ديار بكر وغربي ماردين عند الشحارة، وفي الشتاء في قورنشار، يدفعون الخوَّة للشمر.

12 ـ مويسراك: 1500 خيمة، في الصيف مع الدقرلية في الجزء الغربي من الشحارة، وفي الشتاء على الجانب الجنوبي الغربي، غربي رأس العين وجبل عبد العزيز، وهم لا يدفعون الخوَّة.

13 ـ شخان: أكراد 1000 خيمة، في الصيف بين ديار بكر وماردين، وفي الشتاء غربي رأس العين وجبل عبد العزيز.

14 ـ ملية: أكراد 800 خيمة، في الصيف في قورنشار غربي ماردين، وفي الشتاء على الجانب الجنوب الغربي، غرب رأس العين.

15 ـ عدوان[1]: 900 خيمة، صيفاً وشتاء في قورنشار، يدفعون الخوَّة إلى الشيخ فارس.

---

(1) يعيش جزء من هذه القبيلة في فلسطين على الضفة الغربية لنهر الأردن، وقد التقيت بشيخ عدوان هناك على مقربة من العريش عندما زرت فلسطين سنة 1897 صحبة ولي عهد الدوق الأكبر لمقاطعة زاكسن كوبورج وغوتا الَّذي توفي.

16 ـ **جيجان**: شركس 800 خيمة، صيفاً وشتاء في رأس العين.

17 ـ **جبور**: 2000 خيمة، في الصيف عند الخابور، وفي الشتاء في منطقة سنجار، ويدفعون الخوَّة للشمر(1).

18 ـ **عقيدات**: 800 خيمة، في الصيف عند الخابور، وفي الشتاء عند الخشام والروضة، يدفعون الخوَّة للشمر.

19 ـ **بقارة «رعاة البقر»**: 1200 خيمة، في الصيف عند الفرات، وفي الشتاء عند جبل عبد العزيز، ويدفعون الخوَّة للشمر.

قبائل في بلاد ما بين النهرين

2 ـ قبائل بلاد ما بين النهرين:

1 ـ **موالي (سادة)(2)**: يعملون غالباً في الزراعة أو تربية الماشية، 400 خيمة، في الصيف حول أورفه، وفي الشتاء في السهول الواقعة غربي سنجار، يدفعون الخوَّة إلى فارس.

2 ـ **حديديين**: 1500 خيمة، في الصيف عند مواقع المياه

---

(1) لا يدخل في هذا الإحصاء القسم الشرقي من الجبور عند نهر دجلة.

(2) ربَّما تعني هذه العبارة أيضاً «الأقارب» وهي جمع «مولى» وتطلق على الزبائن غير العرب لقبيلة عربية وتقابلها عبارة «الأصيل» من العرب.

والآبار بين نصيبين وأورفه ـ أهم الآبار هي بئر أُم الصلابيخ الواقعة على مسافة اثنتي عشرة ساعة شرقي أورفه ـ وفي الشتاء عند جبل عبد العزيز، يدفعون الخوَّة للشمر.

3 ـ شركس: (جركس) 1000 خيمة، صيفاً وشتاء على أعالي الخابور، فلاحون يتطوعون في العادة في الجيوش التركية، لا يدفعون الخوَّة ويتمتعون بحماية متميزة من الحكومة.

4 ـ جبور: غالباً فلاحون 5000 مسكن (بيت دوم) أو خيمة، (بيت شعر) صيفاً وشتاء بين حمام علي وشريعة الغزال في اتجاه الجنوب حتَّى مسافة ساعتين من عاشق، يدفعون الخوَّة للشمر.

5 ـ خزرج: صيفاً وشتاء بالقرب من سميقة، وهي قرية تضم 300 بيت تقريباً على مسافة أربع عشرة ساعة شمالي بغداد، وباتجاه الجنوب حتَّى بلد والطارمية على مسافة ساعتين أو ثلاث من دجلة، وهم فلاحون يعدُّون زهاء ألف بيت في ثلاثة أنماط من البناء، ولا يدفعون الخوَّة بسبب قربهم من مدينة بغداد.

6 ـ بني تميم: صيفاً وشتاء قرب الطارمية، وهم رعاة يعدُّون ألفاً وخمسمائة بيت ولا يدفعون الخوَّة[1].

7 ـ المجمع: 500 بيت، صيفاً وشتاء على ضفاف دجلة،

---

(1) يطلق عليهم جونز اسم «بني تني» أنظر: صفقات بومباي، المجلد 9، ص314.

وتمتد منطقتهم على مسافة بضع ساعات حتَّى الكاظمين، قرابة نصف ساعة شمالي بغداد.

8 ـ مَشاهِدة: صيفاً وشتاء على جانب النهر جنوبي قبيلة مجمع، وتنتهي منطقتهم في نصف ساعة شمال الكاظمين.

3 ـ قبائل على الخط الرابط بين الدير والفلوجة:

1 ـ أبو معيت: صيفاً وشتاء على ضفاف الفرات حتَّى الميادين، 1500 بيت، وهم فلاحون لا يدفعون الخوَّة بسبب قربهم من مدينة الدير.

2 ـ أبو حليحل: 1200 بيت تقريباً، تماماً على شاكلة أبو معيت.

3 ـ البوكمال: 2000 بيت، صيفاً وشتاء بين ميادين والعرسي، على مسافة اثنتي عشرة ساعة جنوب ميادين ولا يدفعون الخوَّة.

4 ـ جغايفة: بين العرسي وعانة، 2000 بيت، لا يدفعون الخوَّة ويُربُّون الأغنام والخيل.

5 ـ دليم: بين هيت وفلوجة، 3000 بيت، ولا يدفعون الخوَّة.

6 ـ زوبع: 3000 بيت، بين فلوجة والرضوانيَّة، وهي مجرى

جاف يتفرع عن الفرات على بعد مسافة ساعتين جنوب فلوجة، لا يدفعون الخوَّة.

7 ـ جنابيين: على جانبي الفرات بين الرضوانيَّة والمسيب على النهر بين بغداد وكربلاء.

8 ـ ضرير: حوالي 2000 بيت على جانبي الفرات، لا يدفعون الخوَّة.

9 ـ زبيد: فلاحون ورعاة ويربون الإبل، 5500 بيت بين المسيب وعلاج «علاق» تبعد تسع ساعات شرقي الحلة.

10 ـ جبور: 5000 بيت بين علاق والديوانيَّة، وهي مدينة مهمَّة على الفرات.

11 ـ (عفك): 10,000 بيت بين الديوانيَّة وأبو جواريب.

12 ـ اقرع: 10,000 بيت بين أبو قعارير والخضر.

13 ـ بدور: 6000 بيت بين الخضر وسوق الشيوخ.

14 ـ بني أسد: 6000 بيت، بين سوق الشيوخ والقرنة.

15 ـ كتيبان: 3000 بيت، فلاحون بين القرنة والبصرة.

16 ـ بعيج: 10,000 بيت بين بغداد وبغيلة، وهي مدينة صغيرة حديثة العهد تضم ثلاثمائة بيت على مسافة أربعة أيَّام تقريباً جنوب بغداد.

17 ـ الرفيع: 10,000 بيت بين بغيلة وكوت، وتطلق عبارة «قوم» على القبيلتين الأخيرتين وتعني أنهما في حالة حرب فيما بينهما.

18 ـ منتفك: بين كوت والناصرية ـ وهي مدينة كبيرة عند أسفل الفرات وهي مركز متصرف تابع لولاية البصرة ـ وتعد قبيلة المنتفك زهاء 50,000 بيت، ويعيش بعضهم في الشامية، وتخضع القبيلة اليوم إلى الحكومة، وقد كان شيخها الأكبر ناصر باشا الَّذي خلفه فالح باشا.

19 ـ الحميد: 3000 بيت بين الحي والشطرة، وتقع الحي على مسافة يوم جنوبي الكوت على شط الحي، وكلتا المدينتين مركز قائم مقام تابع للناصرية الَّتي هي أحد الألوية الثلاثة لولاية البصرة.

اشتهرت هذه القبيلة بصلابة رجالها وشجاعتهم، وهذا ما يفسر قدرتهم على الصمود أمام عدوهم قبيلة المنتفك.

20 ـ معدان: 1000 بيت، فلاحون يزرعون الأرز، وصيادو سمك بين الشطرة والقرنة، وينقسمون إلى أربعة فرق:

أ ـ غزالات.

ب ـ ذبات.

ج ـ حويطات.

د ـ شبيتات.

21 ـ عقيل: يسكنون 300 بيت تقريباً في بغداد، وهم من رعاة الإبل، ويوجد القسم الأكبر في نجد حيث يُعدّ مائتي ألف بيت من هذه القبيلة.

22 ـ بقّارة «رعاة البقر»: بين الدير وقلعة أُم عمد على مسافة قرابة ست ساعات شمالي الدير[1].

تنتسب القبائل التالية إلى المذهب السُنّي: البقارة، الموالي، الحديديين، الشركس، الجبور، الخزرج، المشاهدة، أبو معيت، أو حليحل، البو كمال، الجغايفة، دليم، زوبع، الجنابين، غرير، الرفيع من بين القبائل الَّتي ذكرتها. ومن المنتفك تنتمي عائلة شيوخ سعدون الكبيرة إلى السُنَّة، في حين ينتمي الباقي إلى الشيعة، ثمَّ عقيل والعابد، أمَّا الَّذين ينتمون إلى الشيعة فهم: بنو تميم، المجمع، زبيد، عفك، اقرع، بدور، بنو أسد، كتيبان، بعيج، والبقية من قبيلة منتفك والحميد وطيء ومعدان.

4 ـ سكّان شاطيء دجلة

يسكن جميع البدو المقيمين على ضفة دجلة في بيوت من الحَلْفاء والقشّ في الصيف، وفي الشتاء يسكنون في خيام البدو المعهودة، أمَّا القبائل المستقرة في القرى فتسكن صيفاً وشتاء في بيوت من طوب الطَّفْل، ولا ينصبون الخيام المصنوعة من وبر

(1) أعتقد أنَّ المعنيّ بـ«الدير»: مدينة حلبية الأثرية.

الإبل إلاّ عندما تهدم الفيضانات بيوتهم، وتدفع جميع القبائل البدوية الَّتي تسكن الضفة اليمنى من دجلة، من الموصل حتَّى الطارمية، باستثناء البو حميد، الخُوَّةَ إلى شمر، وعلى وجه التحديد إلى أبناء فرحان، أمَّا القبائل الَّتي تسكن الضفة اليسرى فلا يدفع الجزية إلى شمر إلاّ بعضُها.

1 ـ الجبور: يقيمون صيفاً وشتاء على الضفة اليمنى للنهر بين الجهينة الَّتي تقع على مسافة خمس ساعات غربي الموصل، وقلعة رياش الَّتي تقع مسافة أربع ساعات غربي تكريت، أمَّا على الضفة اليسرى فيقيمون في منطقة الحميرة وتقع على مسافة أربع ساعات شرق الموصل وتل الذهب الَّذي يبعد مسافة عَشر ساعات عن تكريت. وإضافة إلى ذلك تتناثر بعض البيوت على ضفتي النهر وبالتحديد في ضواحي الضلوعية، وجمعهم يدفعون الخوَّة.

2 ـ البو حسين: يقيمون على الضفة اليمنى بين الموصل والجهينة ما عدا حمام علي (العليل) الَّذي يسكنه البو حمد، ثمَّ نجد البو حسين أيضاً على الضفة اليسرى لدجلة قبالة حاوي أصلان.

3 ـ تركمان: يقيمون على الضفة اليسرى بين الموصل وحاوي أصلان، ويقيمون في قرية سلطان عبد الله على الضفة اليسرى للنهر على مسافة أربعة أيَّام شمال سامراء وخمسة وثلاثين كيلومتراً ـ ثماني ساعات ـ جنوب نمرود.

4 ـ البو عبّاس: يقيمون على الضفة اليمنى بين المهيجر والمعيجل أو التينة وتبعد أربعة كيلومترات جنوب سامراء، أما على الضفة اليسرى فيقيمون بين شناص، وهي قرية تبعد مسافة ساعة ونصف شمال سامراء، وبين السعيوية قرابة خمسة وثلاثين كيلومتراً شرقي سامرّاء، وهم على المذهب السُنّي على غرار مدينة سامرّاء في مجملها، رغم وجود عدد كبير من الشيعة أيضاً فيها.

5 ـ جحيش: وهم فرع قليل العدد من قبيلة طيء يسكنون على النهر، ويشكلون نصف سكّان قريتَي نايفة ونمرود.

6 ـ البو حمد: لا نجدهم إلاّ في حمّام علي (العليل).

7 ـ بنو تميم: يتناثرون هنا وهناك غالباً على الضفة اليسرى بين المراح والجديد، أمّا على الضفة اليمنى فيقيمون في الحصى والزنبور، وجميعهم شيعة.

8 ـ المجمع: يقيمون على ضفتي دجلة بين صدر الدجيل وبلد.

9 ـ المشاهدة: يقيمون على الضفة اليمنى بين الطارمية والشريعة البيضاء، ثمّ نجدهم أيضاً على الضفة اليسرى بين حويجة الغرب والعظيم.

10 ـ الحباب: ثلاثون بيتاً فقط نجدها في موقع على الضفة اليمنى يبعد كيلومترين تقريباً شرق السفينة.

توجد ثلاث جنسيات غير عربية ضمن القبائل المذكورة آنفاً وهم: الأكراد والتركمان والشركس، والأكراد أكثر الثلاثة عدداً، ويتنقلون عامَّة عند أقصى الأطراف الشمالية للصحراء، وهم يقيمون على كلِّ حال في تلك المناطق منذ قرون عديدة رغم أنَّ موطنهم الأصلي هو جبال شمال بلاد ما بين النهرين، يحمل سادة القبائل لقب «آغا» أو «بيك» ويسكنون قصوراً محمية بقلاع على أعالي الجبال، وينتمي هؤلاء الأكراد إلى الشعب الكردي الَّذي يتناثر في منطقة على شكل هلال واسع من الخليج العربي حتَّى آسيا الصغرى، وقد ظلَّ الأكراد منقسمين إلى عدد كبير من القبائل بسبب هذا الاتساع الجغرافي الَّذي يمنع تكوين دولة موحدة، وينتمي الأكراد اليوم إلى بلاد فارس، وروسيا، وتركيا حيث نجد العدد الأكبر منهم، ويقدر بخمسة ملايين.

جنسيات غير عربية بين العرب

[الأكراد]

أصل الأكراد هندوجرماني، وأقرب جنس إليهم هم الفرس، ولم يخضع الأكراد نهائياً إلى الحكومة التركية إلاَّ في هذا القرن، ورغم انتماء أكبر فريق منهم إلى الديانة الإسلامية فإنَّهم لا ينخرطون في صفوف الجيش النظامي، ولا يجرى عليهم التجنيد العادي، وقد أصبحوا مقابل ذلك في الفترة الأخيرة يشكلون جزءاً

هاماً من الفرسان غير النظاميين عن طريق ما يُسمَّى كتائب الحميدية، ثمَّ إنَّ شرطة المقاطعات العربية تتكوَّن في معظمها من الأكراد، ولا تختلف القبائل المسيحية القليلة في مظهرها عن نظائرها من المسلمين كما لا تقلّ عنها ميولاً إلى الحرب، ويمارس الأكراد في جبالهم الفلاحة وتربية الماشية، لكن النَّاس يتجنبونهم بسبب مزاجهم الانفعالي وميولهم إلى الغضب، ويغلب الظن أنَّ اليزيديين في سنجار[1] ينتمون إلى الأكراد أيضاً.

[التركمان]

أمَّا التركمان الَّذين تربطهم صلة قرابة بالعثمانيين والأتراك المستقرين في آسيا الصغرى فعددهم أقل بكثير من الأكراد، ونجدهم خاصة في الركن الشمالي الغربي للبلاد عند البليخ في اتجاه أورفه، ويقيم التركمان شرقي الدجلة أيضاً، بين الموصل والزاب الكبير، ونجد كذلك عدداً كبيراً منهم غربي الفرات، في أقصى طرف من شمال سوريا، وبالذات في آسيا الصغرى، وموطن التركمان الأصلي هو ما وراء نهر أكسس[2]، وقد نزحوا منه في العصور الوسطى قبيل الحروب الصليبية وأثناءها وساهموا في الدفاع عن فلسطين ضد الجيوش الصليبية.

---

(1) أنظر فصل 13 ص147. (من البحر المتوسط إلى الخليج.

(2) هي المنطقة الَّتي تضم اليوم طشقند وسمرقند وأذربيجان أي ما وراء نهر أكسس.

أحدثُ نازحين إلى بلاد ما بين النهرين هم الشركس الَّذين يقيمون في منطقة رأس العين، وموطنهم الأصلي هو القوقاز الَّذي استولى عليه الروس فغادروه في بداية الستينيات في بضعة آلاف من النَّاس، وقد توجهوا إلى تركيا واستوطنوا في البداية في بلغاريا في عدد من القرى الواقعة على المنطقة الممتدة من البحر الأسود إلى حدود صربيا لاستعمالهم في حراسة البلغاريين، وإليهم تنسب الأحداث الَّتي أطلق عليها اسم «الفظائع البلغارية»، والَّتي دفعت روسيا إلى التدخل وإعلان الحرب على تركيا سنة ألف وثمانمائة وسبع وسبعين ميلادية، وبمجيء الاحتلال الروسي أصبح على الشركس أن يغادروا البلاد، وبما أنَّهم لم يرجعوا بعد أن استتبَّ السلم؛ فقد اضطر الباب العالي إلى البحث عن موطن آخر لهم يستقرون فيه لذلك انتقل فريق منهم إلى آسيا الصغرى[1] وتوغلت فرق أُخرى في سوريا وبلاد ما بين النهرين، لكنَّهم ما لبثوا أن جلبوا لأنفسهم كراهية الأهالي المستقرين في تلك المناطق بسبب ميولهم إلى النهب واللصوصية، وعلى وجه التحديد، ما لبث الشركس الَّذين استقروا عند حدود الصحراء ومن بينهم الجالية الَّتي نزلت في رأس العين أن دخلوا في معارك دامية مع البدو

(1) شاهدت سنة 1895م في أنجورا مئات من الشركس الَّذين كانوا قد غادروا قراهم الواقعة في المناطق الروسية منذ أمد قريب، وكانوا لا يزالون يلبسون حللهم التقليدية، ويبحثون عن منازل جديدة ناقلين متاعهم عن عربات تجرُّها النيران.

المستقرين في الأراضي الَّتي نزلوا فيها أو بجوارها، وقد تفاقم الوضع إلى أن أصبحت العداوة صراعاً عنصرياً خاضه الطرفان بضراوة ليس لها مثيل، وانهزم الشركس بسبب قلَّة عددهم رغم ما يتميزون به من بسالة، وخلال بضع سنين تمَّت الإبادة الكاملة تقريباً، خاصَّة لسكَّان رأس العين، وتم تعمير المنطقة من جديد سنة 1883م وتم تعيين قائم مقام من الدير أوَّلاً ثمَّ من ديار بكر، وعادت الطمأنينة شيئاً فشيئاً إلى الجالية أثناء دفع عجلة السلم مع شمر في السنوات التالية، رغم أنَّ العداوة لم تنتهِ تماماً في الواقع.

موقف الباب العالي من قضية البدو

وجَّه الباب العالي منذ أن بدأ ممارسةَ نفوذه على سوريا وبلاد ما بين النهرين عناية خاصة إلى القبائل البدوية الَّتي تم إخراجها من الصحراء؛ فاضطرت إلى الاستقرار عند أطرافها. لقد حافظت هذه القبائل على ما يذكرها بحياة الترحال السابقة عن طريق استعمال الخيام، أو اتخاذ بيوت بسيطة من المواد الخفيفة، إلاَّ أنَّها تركت النهب والسلب، وأصبحت لا تعيش من قطعان الماشية التي تملكها بل على المحاصيل الزراعية التي تنتجها باستعمال طرق لا تزال بدائية إلى حد بعيد، ثمَّ إنَّهم ظلوا يطلقون على أنفسهم اسم «عرب» وهو الاسم الَّذي يودّ البدو المترحلون احتكاره لأنفسهم دونَ غيرهم؛ ولذلك يطلقون على هؤلاء الَّذين استقروا اسم «فلاحين»، وعلى كلِّ حال لا يزال هؤلاء الَّذين أصبحوا مستقرين

بدرجات متفاوتة يعودون إلى حمل السيف والرمح وينقلبون إلى ما كانوا عليه سابقاً: أبناء الصحراء الطلقاء، ويحدث ذلك عندما يشتد عليهم عبء الضرائب والخوَّة الَّتي يطالب بها إخوانهم الأقوياء، الَّذين ظلوا على نمط الحياة البدوية، وقد حاول الباب العالي حمل هذه القبائل على إنشاء واستعمال بيوت ثابتة، لكن يبدو أنَّ هذه المحاولة مُنيَت بفشل ذريع حتَّى الآن، وقد تحقق الهدف مع بدو الجبور الَّذين استقر قسم منهم على ضفاف دجلة، لكن النجاح كان أقلَّ من ذلك بكثير مع قبيلة طيء، وتقدّم المنازل المهجورة في قرية مَرْقَدة عند الخابور[1] دليلاً واضحاً على مزاج سكان الصحراء الجامح.

بناء بيوت ثابتة، مدرسة البدو في القسطنطينية

يذكر زاخاو[2] وجود مثل هذه القرى المهجورة في عدَّة مناطق من منخفضات الفرات شمالي الدير، أمَّا القبائل القوية فإنَّه لا يرتجى منها الإذعان إلى مثل هذه الإجراءات، إلاَّ أن منح لقب «باشا» لشيخ شمر فرحان بن صفوق وتخصيص دخل سنوي له كان يهدف إلى حمل هذا الشعب الكبير من البدو في بلاد ما بين النهرين على الاستقرار، وقد شيد فرحان لنفسه بيتاً على هيئة القلعة

(1) أنظر الفصل 1، ص21. من البحر المتوسط إلى الخليج.
(2) أنظر المرجع المذكور، ص264.

في قلعة الشرقات على نهر دجلة؛ غير أنَّه لم يتبعه أحد من قومه في هذه المبادرة، ورغم أنَّ الشيخ فرحان لم يسكن في هذا المنزل إلاَّ زمناً قصيراً بل كان إلى آخر أيَّامه يستعمل الخيمة عوضاً عنه، فإنَّه فقد كثيراً من الاحترام والتقدير في الصحراء بسبب استجابته لتعليمات الباب العالي، ويبدو أنَّ بعض أبناء فرحان عادوا في السنوات الأخيرة إلى بناء منازل على مقربة من سامرَّاء حيث ما زالوا يسكنون إلى اليوم[1].

تتمثَّل المحاولة الأُخرى لحمل البدو على المدنيَّة والتحضُّر في المدرسة الَّتي أنشأت في القسطنطينية سنة 1892م «عشيرة مكتبي» والَّتي تهدف إلى تعليم أبناء الشيوخ والأعيان من البدو وحدهم، وقد ضمَّت هذه المدرسة في السنة الأُولى من تشييدها واحداً وستين طالباً من بينهم حميده ابن الشيخ فرحان باشا، وابن كبير شيوخ المنتفك فهد باشا، وأحد أقارب شيخ الرولة سطام بن شعلان، وقد أنشأت هذه المدرسة بمبادرة شخصية من السلطان عبد الحميد الحاكم الحالي الَّذي يتابع تطورها باهتمام كبير، وقد زرت المدرسة سنة 1895م تلبية لرغبة أعرب عنها لي السلطان شخصياً، ثمَّ كرَّرت الزيارة سنة 1897م، فكان المكان قد أصبح ضيقاً وكانوا قد شرعوا في تشييد مبنى جديد، كان كل شيء في المدرسة يدلُّ على النظافة والنظام وكان الانطباع عن المدرسين

(1) يوجد من بينهم حميده الَّذي تربَّى في القسطنطينية.

والطلبة جيداً، ولا شيء يذكُر بأنَّ هؤلاء الصبيان الَّذين يلبسون زياً أخضر ضيقاً يلتصق بأجسامهم كانوا قد ترعرعوا بحرية في الصحراء إلاَّ ملامحُ وجوههم وبريقٌ يتلألأ في عيونهم، ويوجد الآن في المدرسة صبيان أكراد، وأبناء شيوخ من طرابلس الشام ومن اليمن، وتتحمَّل المدرسة جميع مصاريف الطلبة بما في ذلك مصاريف العودة إلى مواطنهم في العطل، وتتوافر العناية التامَّة أثناء هذا السفر، وتخصّص وحدة عسكرية للمرافقة، حتَّى إنَّ حمَّالة مغطاة «تخت الروان» تجرُّها البغال ترافقهم في بلاد ما بين النهرين تحسُّباً لحالات المرض.

ضرورة الإجراءات العسكرية

تُدرّس في مدرسة البدو اللغةُ التركية والجغرافيا والتاريخ ـ خاصة تاريخ الإمبراطورية العثمانية ـ وعلوم الحساب والدِّين، ويتمثَّل الهدف الأساسي للمدرسة في تربية الطلبة تربية تجعل منهم أتباعاً طيبعين للسلطان، وتعلمهم الأدب والنظام عسى أن يتعودوا هذه الصفات ويحبُّوها، ويساهموا في تحضُّر أبناء قبائلهم عند رجوعهم إلى أوطانهم.

تشمل محاولات التوطين والتعليم أوجهاً إيجابية بلا ريب، إلاَّ أنَّني أرى أنَّه ينبغي على الباب العالي أن يركِّز في سياسته تجاه البدو على اتخاذ إجراءات عسكرية حازمة ضد غزوات البدو

الرُّحَّل لحماية المستوطنات المستقرة عند أطراف الصحراء، وسفوح الجبال وعلى الأنهار والجداول، وأن يعمل على تخليص هذه المستوطنات من دفع الخوَّة، ووضع حدّ للنهب والسلب الَّذي تتعرَّض إليه القبائل المسالمة المتنقلة في الصحراء، ثمَّ أنَّه يجب توسيع رقعة الأراضي المستصلحة حتَّى لا يبقى لأولئك الَّذين يتشبثون بالحياة البدوية إلاَّ البراري غير الصالحة للزراعة، عندئذٍ سيتبيَّن ما إذا كان البدو يريدون ويستطيعون العيش على تربية الماشية بعدما يتم تطويقهم من كل جانب، وما إذا كان قادرين على ترك النهب والسلب والغزو، أو أنَّهم لا يجدون مورداً للحياة؛ فيُضطرون في النهاية إلى العمل في الزراعة، أو الانسحاب والرجوع إلى المكان الَّذي جاؤوا منه، ألا وهو الصحراء العربية[1].

(1) قضية البدو في مصر: هناك دليل متميز على أنَّ التخطيط المُحَكَم للحكومة يستطيع تغيير طريقة عيش البدو، وهذا الدليل هو ما حدث في مصر؛ فقد كانت الأوضاع قبل عهد محمَّد علي باشا مشابهة تماماً لأوضاع سوريا وبلاد ما بين النهرين، وكان البدو يعيشون حياة حرَّة مستقلة خارج المناطق الزراعية الَّتي يعمل فيها فلاحون مسلمون وأقباط قرب النيل وروافده، والقنوات القليلة الَّتي كانت موجودة في ذلك العهد، وقد شكلوا أثناء الحملة الفرنسية قوَّة مقاتلة لا يُستهان بها، وقد تصرَّف العبقري محمَّد علي باشا تصرُّفاً حكيماً معهم، فبعدما استعملهم كما شاء لترسيخ نفوذه في مصر، دفع بالآلاف من هؤلاء الرِّجال المتمرسين في القتال إلى المشاركة في حملاته ضد الأتراك في البلاد العربية، وقد استقر جزء من قبيلة هنادي الَّتي جاء بها إلى سوريا في المناطق

المجاورة لحلب، حيث لا يزالون يشكلون إلى اليوم قبيلة مستقلة قادرة على البقاء، والعيش الكريم، وفي مقابل الخدمات الّتي قدّمتها له هذه القبائل أعطى لبعض شيوخهم مساحات كبيرة من أراضٍ غير مزروعة لكنّها قابلة للاستغلال والاستثمار، وفي الوقت نفسه أرغم البدو باستعمال قسوة لا مثيل لها على إنهاء اعتداءاتهم على المزارعين وتركهم وشأنهم، وفي البداية لم يتوجّه إلاّ عدد قليل من البدو إلى زراعة الأراضي الّتي حصلوا عليها، لكنّ النّاس اقتنعوا شيئاً فشيئاً بأنّ هؤلاء القلّة الّذين سلكوا هذه الطريق قد حققوا مستوى جيداً من الرفاهية يزيد بكثير على ما يتمتع به إخوانهم الّذين يعيشون ممّا تدرّه عليهم تربية الإبل والأغنام والماعز والخيل ـ أما تربية البقر فيعتبرها البدوي المصري عملاً مشيناً ولذلك لا يمارسه إلاّ العرب البقارة الّذين يقيمون في بعض مناطق السودان ـ وقد قلّت المراعي الخصبة رغم ذلك، وقضى جنود وشرطة محمّد علي باشا ومن خلفه في الحكم على ظاهرة النهب والسلب والغزو في الأراضي الجديدة، أمّا الّذين تشبثوا بعاداتهم القديمة ورفضوا التخلي عن الغزو وعن قطعان الماشية فقد أرغموا على التراجع شرقاً وغرباً من ضفاف النيل ومن الدلتا، وساهمت الطبيعة المتميّزة للصحراء المصرية بلا ريب في التأثير على أعداد من البدو الّذين تراجعوا، وعلى مواصلة جلبهم إلى المناطق الخصبة، حيث يُضطرون إلى التمدن والإذعان إلى قوانين الحكومة؛ وعند المقارنة بمنطقة الحماد في البراري السورية وبلاد ما بين النهرين، نجد أنّ الصحراء المصرية أكثر رمالاً وجدباً وأقل مياهاً وغير قادرة على توفير الغذاء لعدد كبير من النّاس والأنعام طوال جميع فصول السنة؛ ولا يزيد عدد البدو الرحل في مصر في الوقت الحاضر على عُشْر العدد الإجمالي للبدو فيها، وتشير أحدث إحصائيات صدرت سنة 1898م إلى أنّ العدد الإجمالي للبدو المصريين يبلغ 601427، ويبلغ عدد البدو الرحل من بين هؤلاء 70472، أمّا البقية فقد أصبحوا مستقرين، بحيث يعيش 240880 مبعثرين في قرى ومدن يعيش فيها الفلاحون، في حين أنشأ العدد الباقي وهو 290075 قرى وتجمُّعات

سكنية جديدة، ويعيش الشيوخ الأغنياء في القاهرة وفي أراضيهم الشاسعة في مساكن رائعة مجهزة بقدر متفاوت على النمط الأوروبي، ويفضلون الزواج من النِّساء التُرْك أو الشركس، ويعيش بقية البدو الّذين استقروا وفقاً لظروفهم الاقتصادية في أكواخ أو مساكن على غرار مساكن بقية الفلاحين، ولكن قد يشاهد المرء بين الحين والآخر بعض القرى الّتي لا تزال تمر بمرحلة انتقالية، يعيش أهلها كافة في الخيام، وينصب بعض الّذين أصبحوا يعيشون في مساكن ثابتة خياماً إلى جانب قراهم في فصل الصيف، وكذلك يتميز البدو الّذين أصبحوا مزارعين عن غيرهم من الفلاحين في ملابسهم وفي لغتهم العربية، ولن يوافق البدوي الّذي أصبح مزارعاً أبداً على تزويج ابنته من فلاح، في حين يتزوج هو من بنات الفلاحين، الأمر الّذي يساهم بدوره في زيادة الاختلاط بين المجموعتين، ويمكن القول: إنَّ البدوي بصفة عامَّة لا يزال إلى اليوم ينظر نظرة ازدراء واحتقار إلى الفلاح، ونجد خاصة أنَّ البدو الّذين لا يزالون يترحلون يسندون إلى امتيازات قديمة، ويتمتعون بحمل سيوفهم عندما يزورون المدن، وقد طالب البدو في السنين الأخيرة ـ دون جدوى ـ بحقوق أخرى أعطاهم إيّاها وخصَّهم بهم محمَّد علي باشا، ذلك أنَّ الحكومة المصرية حاولت إدخال تغييرات جذرية على الإدارة الداخلية، وفرضت على القرى البدوية قبول الواقع، ومكافأة الأشخاص الّذين عينتهم الحكومة في منصب العمدة والغفير، وأهم شيء عند البدوي المصري هو أن لا يرغم على أداء الخدمة العسكرية، وقد تسببت الحركة الّتي نتجت عن هذا الموقف في نزوح بعض عائلات قبيلة هنادي إلى سوريا حيث تمارس ـ كعهدها في مصر ـ النشاطات الزراعية الّتي ترعرعت عليها، والّتي ترتاح إليها أيّما ارتياح، أمّا العودة إلى نمط حياة الترحال البدوية في مصر فإنّه موضوع لم يحظ بشعبية كبيرة ولم يكسب كثيراً من الناصرين، وفيما عدا ذلك لا يزال الشيوخ الأصليون للبدو يتمتعون بنفوذ واسع، وتعتمد الحكومة على أفراد عائلات الشيوخ الّذين لا يزالون إلى اليوم مسؤولين عن المحافظة على النظام في الصحراء، وقد حفظ عدد كبير من البدو المصريين علاقاتهم

لا بدَّ من الاعتراف بأنَّ الحكومة التركية قد فعلت الكثير بخصوص هذا الموضوع في العقود الأخيرة، فقد أصبحت مسافات كبيرة في سوريا آمنة بعدما كانت حتَّى الستينيات مرتعاً لأهواء البدو يفعلون فيها ما يشاؤون حسب ما يذكره شهود عيان موثوق بهم.

نجاح السياسة التركية مع البدو

وقد أصبح خط الفرات آمناً منذ أن أنشأت فيه ثكنات عسكرية تفصل بين الواحدة والأخرى منها مسافة يوم من السير، ورغم قلَّة الحماية المباشرة الَّتي تمنحها هذه الثكنات الَّتي يقوم عليها بين ثلاثة وعشرة جنود على الأكثر فإنَّ الحركة على هذه الطريق قد نشطت بشكل جيد بعد أن كانت شبه منعدمة، وتتمتع هذه المراكز بحماية منيعة تتمثَّل في الوحدات العسكرية النظامية الَّتي تدعى «البغَّالة» في دير الزور، والَّتي وفَّرها وقام عليها عدد من الحكَّام الَّذين يتمتعون بالحكمة والحزم، وكان لاستصلاح أراضي دجلة لفائدة الإمبراطورية أثرٌ حسَن في إحياء الأراضي

مع أهلهم الَّذين يعيشون على الجانب الآخر من البحر في شبه الجزيرة العربية، وقد جاء شيوخ قبائل بيلي والحويطات الَّتي تعيش في الحجاز إلى مصر سنة 1898م بسبب المجاعة الَّتي انتشرت على السواحل العربية لطلب المساعدة بالحبوب والمال من أهلهم الَّذين يعيشون في مصر، وقد حصلوا فعلاً على ذلك بكميات كافية لسد حاجاتهم.

البور، وأمَّنت الاستعانة بالبدو في هذه الأعمال دخلاً مضموناً لهم ووفَّرت لهم حماية الجنود المخصَّصين لرعاية هذه الممتلكات الحكومية، وقد عادت هذه الحماية بالنفع على سكَّان المناطق المجاورة أيضاً[1].

إلاَّ أنَّه ينبغي اتخاذ إجراءات كثيرة أُخرى بخصوص الجزيرة في أعالي بلاد ما بين النهرين، إذ يجدر توجيه العناية أوَّلاً إلى المنخفضات الخصبة للجغجغ والخابور ليس لأنَّها تمثل طريق تنقل طبيعية فحسب، بل لأنَّ استصلاحها يبشِّر بمحصول وافر أيضاً، إلاَّ أنَّه يجب أن يتزامن ذلك مع إعادة بناء وصيانة أجهزة الري، وتزويدها بالحماية العسكرية، وتوجد في هذه المناطق بطبيعة الحال عدَّة محطات عسكرية، إلاَّ أنَّها غير كافية لا من حيث عددها، ولا من حيث نوعية القائمين عليها، ذلك أنَّ جنود فرق «الضَّبطية» لا يناسبون هذه المهمَّة ويحسن أن يحل محلهم جنود نظاميون وأفضلهم راكبو البغال الَّذين سبق ذكرهم والَّذين برهنوا على كفاءة كبيرة في هذا المجال.

حتَّى وإنْ تسبَّبت هذه الإجراءات في مصاريف غير زهيدة؛ فإنَّ تطور البلاد لن يلبث أن يجزيها خيراً، ثمَّ إن صرف المبالغ الكبيرة لن يستمر إلاَّ سنوات قليلة.

---

(1) قارن مثال قلعة شرقاط، الفصل 6، ص210.

توسيع شبكة التلغراف في الصحراء

يتمثَّل الإجراء الضروري الآخر في هذا الصدد في توسيع شبكة التلغراف، وقد تمَّ وصل الخط مع دير الزور بعد زيارتي لبلاد ما بين النهرين، أمَّا قبل ذلك فقد كانت هذه المدينة المهمَّة بموقعها المركزي بين القبيلتين الكبيرين عنزة وشمَّر منعزلة تماماً، وكانت أورفه الَّتي تقع على مسافة عدَّة أيَّام أقرب محطة تلغراف، إلاَّ أنَّه لا يكفي ربط مدينة دير الزور بخط تلغراف مع مدينة حلب وحدَها، بل يجب ربطها بنصيبين والموصل أيضاً، أمَّا الخط الَّذي يمتد من بغداد في اتجاه أعالي الفرات فقد تمَّ وضعه خصيصاً لمراقبة عنزة ولا يصل إلاَّ إلى قلعة رمادي، ثمَّ يجب إنشاء ثكنات عسكرية على غرار ما حدث في العهد العبَّاسي من إنشاء خانات ـ جَمْعٌ مفردهُ: خان ـ كمحطات على طريق القوافل[1] على امتداد خط التلغراف الَّذي سيصبح مساره طريق تنقل، ولا بدَّ كذلك من إنشاء مراكز عسكرية كبيرة بين المسافة والأُخرى. ورغم أنَّ البدوي سريع في ترحاله حتَّى عندما تصحبه الزوجة والأطفال فإنَّ البغَّالة يفوقونه سرعة خاصَّة لأنَّ القطعان الكبيرة من الأغنام والإبل تعرقل قدرة البدو على الحركة في ساعة الجد، وقد شكَّل الأتراك في الحجاز وحدات من الهجانة ـ جنود يركبون الإبل ـ لأنَّ

(1) أنظر الجزء الأوَّل من كتاب من البحر المتوسط إلى الخليج، الفصل 7 ص259 وما يليها.

الفرسان العاديين لا يصلحون للطرق الصحراوية هناك[1]، وقد أحرز هذا الإنجاز نجاحاً كبيراً، وقد سبق أن استعمل الروم الطريقة نفسها فنشأوا بحذق استراتيجي[2] كبير مراكز عسكرية في سوريا وبلاد ما بين النهرين وأقاموا عليها الخيالة وخاصَّة الهجانة وعرفوا بذلك كيف يراقبون البدو ويكبحون جماحهم.

فإذا تسنَّى إدراك البدو في أي حين عن طريق خط التلغراف والوحدات العسكرية فإنَّ ذلك سيحملهم إمَّا على الاستقرار، أو على الأقل على العدول عن أعمال النهب والسلب والتحوُّل إلى بدو مسالمين يمارسون تربية الماشية، ويمكن عندئذٍ فرض الضرائب المنتظمة الَّتي بدأت الحكومة منذ الآن بتحصيلها منهم، إلاَّ أنَّ الاستفادة منها لا تزال إلى اليوم موضع رَيبٍ واستفهام.

إنَّ البدوي يستحق ـ ولا شك ـ تعاطفنا ومساندتنا، إلاَّ أنَّه علينا ألا ننسى أنَّه يشكل عراقيل في سبيل الانتفاع بالموارد الطبيعية الوفيرة في سوريا وبلاد ما بين النهرين، وإذا لزم الأمر فلا بدَّ من التضحية به في سبيل تطوير هذه البلدان الَّتي لا تزال الاستفادة الاقتصادية منها في طور البداية.

---

(1) من المعروف أنَّ للجيش المصري مثلما للجيش الهندي كتيبتين من الهجانة.

(2) أنظر المراكز العسكرية العديدة على Notitia Dignitatum و Tabula Peutingerena.

الفصل الثاني

قيم ومفاهيم البدو

دستور القبيلة ـ مختار، شيخ، عقيد ـ دَور الشيخ ـ «الكرم» الخصلة الأولى للشيوخ ـ التسلسل الوراثي العناصر الدخيلة على القبيلة، العبيد الزنوج ـ السلطة القضائية ـ قانون البدو ـ الثأر ـ نتائج ظاهرة الثأر ـ مزايا ظاهرة الثأر ـ «حق اللجوء» الحماية الصغرى الحماية الكبرى ـ كرم الضيافة، المظهر الخارجي للبدو ـ الجشع والسرقة ـ الغرور ـ عُدَّة الغزو ـ الروب بين قبائل البدو ـ سلاح البدو: أسلحة الطعن والضرب والأسلحة النارية ـ الصيد ـ الأنعام: الإبل والأغنام والماعز ـ الخيل العربية ـ تخفيض عدد الخيول الخمسة ـ تقويم الخيل «السلالة» ـ البنية ـ اللون ـ العلف، اللجام ـ الحدوة، وقاية السنابك ـ تجارة الخيل ـ ثمن الخيل ـ نسب الخيل ـ أصل الخيل الإنجليزية الكريمة ـ الصفات العامّة للبدو ـ الصليب ـ مظهر البدو ـ المظهر واللباس ـ ملابس وحلي المرأة ـ الوشم ـ الحياة العائلية ـ دور المرأة وأعمالها ـ تعدُّد الزوجات والحب ـ الزواج والغيرة ـ الطلاق ـ تربية الأطفال

ـ موارد العيش عند البدو مأكولات البدو ـ الأمراض ـ الموت والدفن ـ مظاهر اللطف في طبائع البدو ـ التدين ـ تأثير الحركة الوهَّابية ـ أداء الفرائض الدِّينيَّة في مخيم الشمَّر.

دستور القبيلة

يعتمد دستور القبيلة عند البدو على النظام الأبوي، وينبني في الأساس على دستور العائلة، وتتكوَّن القبيلة من مجموعات تزيد أو تنقص عدداً من العائلات والأُسَر الَّتي تربط بينها صلة الرحم وتُسمَّى «عشائر»، ويقودها ـ مخاتير جمعُ «مختار» ـ وتوجد على رأس كل من هذه المجموعات شخصيةٌ يتم الاعتراف بسيادتها عن طواعية ويُسمَّى «الشيخ»، ويشكل الشيخ وعائلته وأقاربه نواة الفريق، ويخضع مجموع شيوخ الفروع الَّتي تكوِّن القبيلة كاملة إلى شيخ يحكم القبيلة كافة، ولا يحمل هذا القائد لقباً آخر غير لقب الشيخ.

كبير الشيوخ هو الرجل الَّذي يتم اختياره عن طواعية من طرف جميع أفراد القبيلة ويمثّلها أمام القبائل الأُخرى، لكن نفوذه الفعلي محدود نسبياً رغم أنَّه يستطيع أن يكتسب نفوذاً معتبراً بفضل خصاله الشخصية كالشجاعة والكرم وغيرها.

دور الشيخ

يتولَّى الشيخ الَّذي يكسب مرتبة عالية من الاحترام بفضل

حزمه وشجاعته شؤون القبيلة بشكل مستقل حتَّى في القضايا المهمَّة دون أن يتخلى عنه أفراد القبيلة، إلاَّ أنَّه ينبغي عليه من حيث المبدأ أن يستشير أعيان القبيلة «المخاتير» الَّذين يشكلون مجلساً استشارياً يبدي رأيه في جميع القضايا الَّتي تهم القبيلة، ويمكن القول بعبارة أخرى: إنَّ الشيخ لا يستطيع أن يأمر بل أن يقترح وأن يبدي رغباته وأن يُسديَ نصيحته فحسب، فهو لا يستطيع مثلاً أن يأمر بشدّ الرحال، لكنَّه بإمكانه أن يبادر بذلك دون أن يكون أي فرد من القبيلة مُلزَماً باتباعه، فإذا شدَّ الشيخ رحاله ولم يتبعه أحد من القبيلة أو اتبعه نفر قليل في تأخُر وتردُّد فإنَّ ذلك يدلُّ على عدم رضاهم عنه[1]، وليس من حق الشيخ أن يتخذ القرار فيما يتعلق بالحرب والسلم، وهو ليس قائداً دون منازع أثناء الحروب، فإذا رأى أفراد القبيلة أنَّ رجلاً آخر يملك تجربة أكبر منه في الحرب فإنَّ ذلك الرجل هوالَّذي يتولى القيادة ويطلق عليه اسم «العقيد»، ولكن مدة سلطته لا تتجاوز الفترة الَّتي تستغرقها الحرب، ويظل منصب العقيد وراثياً في بعض العائلات عند العديد من القبائل[2]، ثمَّ نجد كذلك أنَّ سلطة الشيخ محدودة جداً في

---

(1) يمكن القول بصفة عامَّة: إنَّ المخيم يبقى في موضعه القديم حتَّى ينفد المرعى والماء، أمَّا بقاء القبيلة بعد ذلك مجتمعة أو تفرقها فإنَّه يعتمد على كثافة المراعي الجديدة، وعلى مدى خطر الغزو من طرف القبائل المعادية.

(2) قارن بوركهاردت ملاحظات حول البدو والوهَّابيين، ص238 وما بعدها.

شؤون القضاء، وتعوزه على وجه الخَصوص الوسائلُ اللازمة لتنفيذ الحكم الَّذي يصدره، ذلك أنَّ الفرد من القبيلة يستطيع أن يفلت من الحكم بانفصاله طواعيةً عن القبيلة[1].

ولا يحصل الشيخ بصفة عامَّة من منصبه على أي امتيازات، بل إنَّه لا يجني من ورائه إلاَّ الواجبات، حيث تتطلب مهمَّة التمثيلُ تضحيات كبيرة منه لا يلاقي من القبيلة في مقابلها غير الاعتراف والشهادة له بذلك، وهو الَّذي يتحمَّل مسؤولية موارد الإنفاق الَّتي يقتضيها هذا الواجب؛ ولذلك ينبغي على الشيخ أن يكون دائماً من أغنى رجال القبيلة حتَّى يستطيع القيام بواجب الضيافة بالقدر الَّذي يحتِّمه عليه هذا المنصب.

«الكرم» الخصلة الأُولى للشيوخ

يدَّعي البدو عموماً أنَّ شيخهم لا يملك أية ثروة عندما يتطرقون إلى الثناء على كرمه، ويؤكِّدون أنَّه يوزِّع ما يملك على أفراد القبيلة، ويتمثل المورد الأساسي لمداخيل الشيخ في الخوَّة، وكذلك في نصيب أوفر من مكاسب الغزو إذا كان الشيخ في الوقت نفسه قائداً للغزوة أي عقيداً، ذلك أنَّه يحق لهذا الأخير التمتع بامتيازات[2]

(1) قارن دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأوَّل، ص249.
(2) يتمثَّل ذلك عند قبيلة الفقرا في ربع الغنائم، قارن دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأوَّل، ص251.

معينة عند توزيع غنائم الغزو[1]. إلاَّ أنَّ ينبغي الإشارة إلى أنَّ الشيخ دون شك أن يحتفظ لنفسه ببعض الثروة حتَّى يستطيع تقديم الهدايا عند اللزوم، كما أنَّه يجب دفع الثمن نقداً للأشياء الَّتي لا يمكن الاستغناء عنها عند استضافة الغرباء من القهوة والسكر وغيرها، وقد يقع الشيخ في كثير من الأحيان في مواقف حرجة بسبب التناقض الكامن بين جمع الثروة والكرم، ولا يخلو تراث الصحراء من كثير من القصص المتداولة الَّتي تصور لنا ما سبق وتشهد عليه، ولا تزال قصة حاتم الطائي إلى اليوم مضرباً للأمثال، حيث زاره وفد من قِبَل الإمبراطور البيزنطي بغية شراء فرس ثمينة كان يملكها، وكانت قبيلة طيء أثناء هذه الحادثة تعاني من المجاعة وعدوان القبائل الأُخرى؛ فلم يبق لحاتم من الأنعام غير الفرس المذكورة، فما كان من حاتم الطائي إلاَّ أن ذبح الفرس الثمينة للقيام بواجب الضيافة، لأنَّه لم يكن يعلم سبب قدوم الوفد إليه[2]، كذلك يقصُّ بوركهاردت حكاية مماثلة عن شيخ شمر في مطلع هذا القرن[3]، والعجيب في الأمر هو أنَّ قبيلة عنزة العدو

---

(1) يستطيع المقاتل المتميز بالشجاعة والسرعة بالإضافة إلى ذلك الحصول على غنائم معينة عند تسجيل سبقه إلى دواب معينة أثناء الهجوم على مخيمالعدو، أو عند الاستيلاء على الغنائم، ويشير المالك لمدح سرعة حصان أو بعير إلى عدد الأشياء الَّتي سبق إلى كسبها على ظهر هذه الدابة أثناء الغزو.

(2) قارن يعقوب ـ حياة البدو عند العرب القدماء، ص87.

(3) قارن بوركهاردت في المرجع نفسه، ص276.

اللدود للشمر هي الَّتي قصَّت على بوركهاردت حكاية هذا الكرم النادر لشيخ شمر[1]، ويمكن استنتاج الشاهد الحسي على مدى كرم الشيخ، وسعة ثروته من حجم المنسف ـ وعاء منبسط على شكل الصينية يقدّم عليه الأرز أو البرغل ـ الَّذي يقدِّمه لضيوفه، ويتمثَّل الدليل على أنَّ الكرم هو خصلة يعترف بها حتَّى العدو في الحادثة التالية:

فقد شيخ من شيوخ قبيلة عنزة منسفاً كبيراً متميزاً عندما وقع ضحية للغزو، غير أنَّ هذا المنسف أعيد إليه لاحقاً حتَّى يتسنَّى له استعماله من جديد في إكرام الضيوف.

التسلسل الوراثي

منصب الشيخ في العادة وراثي، لكنَّه ليس من الضروري أن يرثه ابنُه الأكبر، رغم أنَّه يبدو أنَّ القاعدة كانت على هذا النحو عند شمر، إذا اعتمدنا على ما استطعنا تتبعه من تاريخهم، ويجوز أن يرث أحد الإخوة أو الأقارب هذا المنصب إذا كان يتمتع بالمزايا الَّتي تتطلبها هذه المهمَّة بصفة متميزة، وإذا توفي الشيخ ولم يبلغ أبناؤه سن الرشد، فإنَّه يمكن اللجوء إلى نوع من الوصاية الَّتي يتولاها كبار القبيلة ـ إذا كانت القبيلة مهددة بالحروب ـ إلى

(1) قارن فيتزشتاين ـ يوميات رحالة في حوران، ص146 وكذلك دافتي ـ المرجع نفسه المجلد الأوَّل، ص433 وما تبعها.

أن يستتبّ السلم، ويصبح ابن الشيخ المتوفّى قادراً على ممارسة منصبه بصفة مستقلة، إلاّ أنَّه يمكن أن يختار مجموع أفراد القبيلة شخصاً آخر من أنفسهم يتوسَّمون فيه كفاءة أكبر لأداء هذه المهمَّة، فإن لم تتفق الآراء حول الجدارة والكفاءة فإنَّه ليس نادراً أن يؤدِّي ذلك إلى انقسام القبيلة، الأمر الَّذي يحصل أيضاً عندما يطالب عدَّة أبناء بالإرث في الوقت نفسه، وفي العادة يرجع سبب تولي أحد أفراد عائلة الشيخ المتوفَّى للمنصب إلى أنَّ هذه العائلة هي الأشد بأساً وأعز نفراً، وبناءً على ذلك فهي الأوفر ثروة وأكثر غنى، وتستطيع بقوَّتها وكرمها وسمعتها في القبيلة كسب أكبر عدد من الأنصار من العائلات الأُخرى، أمَّا إذا تولت النفوذَ عائلةٌ أُخرى فإنَّ ذلك قد يؤدِّي إلى انقسام القبيلة، ويحدث ذلك أيضاً عند ما يسعى عدد من أفراد عائلة الشيخ المتوفَّى إلى جمع أكبر مجموعة من الأنصار حول كل منهم، فتنشب نار الفتنة بين المتنافسين، ويفتخر كثير من عائلات الشيوخ بأنَّهم يستطيعون تتبع نسبهم إلى القرون الغابرة، فعائلة فارس شيخ شمر تدعو نفسها بكلِّ اعتزاز بيت أو «آل محمد» لأنَّها كانت مموقة منذ زمن النبي محمد ﷺ وكان شيخها في ذلك العهد صحابياً كما يزعمون، ولكن توجد في الواقع إلى جانب عائلة الشيخ الحاكمة ـ في كل قبيلة تقريباً ـ سلسلة من العائلات الأُخرى تعتقد أنَّه يحق لها التمتع بمكانة مرموقة مقارنة ببقية البدو العاديين «النفر» وذلك

بسبب التاريخ المجيد الَّذي تتمتع به منذ قرون بعيدة[1].

يوجد في كثير من القبائل إلى جانب المجموعات العائلية عدد من العناصر الغريبة الَّتي كانت تنتمي إلى قبائل أُخرى، ثمَّ انفصلت عنها بسبب عدم رضاها عن الأوضاع، ولا شك أنَّ السبب الأساسي في ذلك هو أنَّهم يتطلعون إلى حياة أفضل تحت راية شيخ أكثر شجاعة وكرماً وتوجد طبقة أُخرى من هؤلاء الموالي ولا يعودون إليها حتَّى بعد دفع الدية، وتستطيع حتَّى القبائل المعادية ـ إذا حصلت على إذن لها بذلك ـ أن تقيم في مراعي قبيلة أُخرى دون أن يمسَّها أي ضرّ، وتعتبر عندئذٍ ذلك فرعاً من تلك القبيلة، وهكذا لقيت عند الخابور ـ كما سبق أن ذكرت ـ فرعاً كبيراً من قبيلة عنزة كان يقيم منذ سنوات عديدة في مناطق شمر بإذن من الشيخ فارس، ويتبعه أثناء الحروب.

العناصر الدخيلة على القبيلة «العبيد الزنوج»

يشكل الخدم الزنوج والعبيد الَّذين كانوا يعيشون بين البدو منذ العصور الجاهلية[2] جزءاً آخر من القبيلة، ويصرُّ شيوخ القبائل الكبرى على امتلاك عدد وافر من الزنوج «العبيد» الَّذين يمثلون نوعاً من الحرس الشخصي، ولا يبتعدون عن سيِّدهم أبداً سواء في

(1) قارن بلانتس في المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص87، ودافتي في المرجع المذكور، المجلد الأوَّل، ص251.

(2) قارن يعقوب في المرجع المذكور، ص137.

المخيم أو أثناء الحرب، ويرسلهم سيِّدهم لأداء مهامّ خاصَّة مثل تحصيل الخوَّة، وتخشى القرى الَّتي تدفع الجزية هؤلاء العبيدَ خشية متميزة بسبب بطشهم الشديد، وإن وجدنا أفقرَ البدو وأقلَّهم مكانة يترفَّع ترفعاً كبيراً أمام هؤلاء العبيد، فإنَّ ذلك لا يمنع هؤلاء من كسب قدر وافر من الاحترام والنفوذ في القبيلة، وقد جاء هؤلاء الزنوج من موطنهم الأصلي الإفريقي إلى البلاد العربية في العادة بطريقين: مكة في الغرب، ومسقط والبصرة في الشرق، أمَّا في العهد الحديث فقد تراجعت تجارة العبيد تراجعاً كبيراً بفضل مراقبة القوى الأوروبية ـ وإن كانت ما تزال بعيدة عن الانقراض ـ وإنَّ الانتقال إلى قبائل عنزة وشمر لا يتسنَّى إلاَّ لعدد قليل من الزنوج المولودين في إفريقيا، أمَّا الَّذين نجدهم اليوم في هذه القبائل فيغلب على الظن أنَّهم ولدوا في البلاد [العربية ذاتها]؛ ولا تتزوج نساء القبيلة عبداً أبداً، وكذلك لا يتزوج رجال القبيلة من الإماء، ويزوِّج الشيخ أو السيِّد عبدَه في العادة أمَة من بنات أحد عبيده، أو يزوِّجه خادمة أو امرأة غريبة عن القبيلة حالَ موافقتها على ذلك ومن فَوْرِها، وقد تلاشى الطابع المميز للزنوج شيئاً فشيئاً بسبب هذا الاختلاط بالدم العربي حتَّى إنَّه قد اختفى في بعض الحالات اختفاء تاماً، ولقد وجدت عند الشيخ فارس عبيداً من دم مخلوط يجانسون شمر أكثر من مجانستهم للزنوج، ويعامل السيِّد عبيده معاملة حسنة فيحصلون على خيول وأسلحة جيدة، أمَّا

ولاؤهم وشجاعتهم فهي مضرب الأمثال، وقد التقيت عند الشيخ فارس بزنجي خالص ولد في مخيم غريب وعتقه سيِّده وكان قد أجَّر نفسه خادماً للباشا وكان يتمتع بمكانة مرموقة جداً ويتولى تقديم القهوة والإشراف على قطاع الرِّجال في الخيمة، ونجد هؤلاء الخدم الزنوج الأحرار في جميع المخيمات الكبيرة، ويتمثَّل أجرهم في الحصول على منتجات عينية.

السلطة القضائية

تشمل سلطة سيِّد القبيلة جزءاً من الشؤون القضائية[1] كما ذكرنا، غير أنَّ الشيخ لا يمثّل في الواقع إلاَّ نوعاً من التحكيم، لأنَّ الخضوع أو عدم الخضوع لحكمه يتوقف على الأطراف المعنيَّة بالأمر، أمَّا الشخص الَّذي يُصدِر الحكم الفعلي في القبيلة فهو القاضي الَّذي تنتخبه القبيلة، ويكون منصبه عادة وراثياً في عائلته، وللشمر ثلاثة من القضاة الوراثيين يُسمَّى الواحد منهم «مبشِّراً»، ويوجد اثنا عشر مساعداً للقضاة كذلك يتم تعيينهم حسب القضايا اعتماداً على كفاءاتهم المتميزة، وتتم المداولات في القضايا ومعالجتها أمام القاضي شفوياً طبعاً وفي زمن قصير جداً، وفيما عدا ذلك يبقى للأطراف المتنازعة مطلق الحرية في

---

(1) قارن فيما يتعلق بقانون البدو يعقوب في المرجع المذكور، الطبعة الثانية، ص209 وما تبعها، وكذلك دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأوَّل، ص248 و249.

اللجوء إمَّا إلى القاضي - إذا كان في القبيلة قاض - أو إلى الشيخ لفضّ النزاع، ويمكن دعوة حكم من القبيلة نفسها أو من قبيلة أُخرى حسب الرغبة إذا اتفقت الأطراف على ذلك، وفي هذه الحال تأتي الأطراف المتنازعة إلى خيمة الحكم حيث ينبغي أن يُقام «المعاد»، وعلى كل طرف أن يعيِّن كفيلاً يتحمَّل الخسائر المادية الَّتي يقضي بها الحكم على الطرف الَّذي يخسر القضية، وإضافة إلى ذلك تصطحب الأطراف بعض الأعيان من الأصدقاء أو الأقارب الَّذين يقومون بدور الدفاع عن قضية طرفهم، ويقدم الحكم لهؤلاء الأشخاص كافَّة الغذاء لمدة قد تبلغ عدَّة أيَّام، ويتقاضى مقابل ذلك مَبالغَ تتحمَّل الأطراف المتنازعة تسديدَها إليه بانتظام[1]، وقد توجَّه الدعوة لقاضيين أو ثلاثة أو أربعة لحضور بعض المداولات المهمَّة، أمَّا التكاليف الَّتي تدفع للقاضي فهي مرتفعة نسبياً وتسدد عادة بالحيوانات خاصَّة الأغنام والإبل، ولقد حضرت في مخيم شمر مشهداً قضائياً دعت له الأطراف المتنازعة قاضياً، وراحت تصور له الوقائع بطريقة معقدة، إثر ذلك طلب القاضي من الشيخ أن يعطيه السيف ليمسكه بيده، ويصدر الحكم في جو احتفالي متيمز، ولم يكن الطرفان راضيين عن الحكم الَّذي

---

(1) تفضل قبائل العرب والمصريين في شمال البحر الأحمر دعوة رجال من قبيلة عقبة للتحكيم لأنَّ سمعتهم تشهد بقدرتهم على إصدار أحكام متميزة في التوفيق.

قضى بأن يدفع أحدهما ديناراً مجيدياً «غازي» في حين كان على الآخر أن يقدِّم شاة، لكن الغضب ما لبث ذهب وهدأ الطرفان، ويرمز تسليم السيف إلى أنَّ الشيخ يضمن تنفيذ الحكم، وهو أمر ليس له أية قيمة فعلية كما ذكرنا، لكن كثيراً ما تكون الأطراف ملتزمة معنوياً بالخضوع إلى الحكم، وإلاَّ يدفعهم الجوّ العام إلى الهجرة والانضمام إلى قبيلة أخرى.

قانون البدو

يشمل التحكيم القضايا المدنيةَ والجنائية على السواء، وقد تُقام بين الحين والآخر محاكم شرعية، وفي عدَّة مناطق يعتبر بعض الرِّجال مؤهلين بصفة متميزة لإصدار هذه الأحكام الدِّينيَّة الشرعية[1]، أمَّا القوانين المكتوبة فهي غير معروفة عند أهل الصحراء، غير أنَّه نشأ على مرِّ العصور نوع من القانون العرفي سواء في الأحكام المدنية أو الجنائية، وتتميَّز الأحكام الصادرة في قضايا الاعتداء الجسدي[2] بقسوتها؛ الأمر الَّذي يعالج بطريقة

(1) هناك طريقة شائعة في مصر لهذا النوع من المحاكم الشرعية تقضي بتسخين محمصة على النَّار حتَّى تصبح متوهجة، وينبغي عندئذٍ على الطرفين لحسها، ويخسر القضية الطرف الَّذي يرى الحكم أنَّ لسانه قد لحقت به حروق أكثر من الآخر.

(2) يخضع بدو مصر وغزة في حال الإصابة بجروح إلى حكم من قبيلة سليم الَّذي يحدِّد الغرامة حسب حجم الإصابة، ويعتبر بنو عقبة وبنو سليم من أعرق القبائل وأكثرها وجاهة، إلاَّ أنَّهم اندثروا في المناطق المعروفة بهم، ولا يزال بعض الأفراد منهم يعيشون مبعثرين هناك بين القبائل.

إيجابية ميولَ البدو إلى المشاجرة البدوية بسبب مزاجهم الحادّ، ولا يوجد عقاب بالسجن ولا عقوبة بدنية، ولذلك ينبغي النظر إلى العدالة في مجملها من وجهة نظر قانون الملكية، وهكذا يمكن التكفير عن جميع القضايا الجنائية بدفع غرامة مالية أو مادية، حتَّى في حالات القتل، إذا وافق أهل القتيل على [قَبول] الدية الَّتي تختلف كثيراً حسب مكانة وقدر القتيل ومكانة القاتل، لكنَّه يبدو أنَّها لا تقل أبداً عن عشرين ناقة[1]، فإذا تم الاتفاق على ذلك فإنَّ القبيلة كافَّة تتعاون عادة على دفع الديَّة في حال عوز القاتل أو عائلته، أمَّا إذا رفض أهل القتيل قبول الدية فعندئذٍ:

الثأر

يدخل قانون الصحراء حَيِّز التنفيذ الَّذي يقضي بالقصاص «دم بدم»، وقد سبق أن سجَّل العهد القديم هذا القانون، وأكَّده القرآن

(1) الدية ثابتة عند قبائل مصر والحجاز على البحر الأحمر، وقدرها أربعون بعيراً من الإبل المخصصة لحمل الأثقال، إضافة إلى ناقة للركوب على دية الرجل الواحد، ويبدو أنَّه من الصعب في هذه المناطق حمل عائلة القتيل على قبول الدية، وتبلغ ديَّة المرأة في هذه الربوع ضعف ديَّة الرجل، وتبلغ ديَّة الطفل أربعة أضعاف ديَّة الرجل، والسبب في ذلك بسيط وهو أنَّ البدوي يحترم المرأة ويسعى إلى حماية النِّساء والأطفال الَّذين يمكن مباغتتهم في المخيم الأعزل أثناء الغزو، وكانت الديَّة في العصور العربية القديمة أكثر من ذلك بكثير إذ كانت تبلغ مائة ناقة أو ألفي شاة. قارن ف. كريمر ـ تاريخ الحضارات، المجلد الأوَّل، ص466.

في سورة البقرة آية 173 [178]، إلاّ أنَّ البدو قد جعلوا من هذا القانون أداة يستعملونها بطريقة صارمة جداً قد تصل إلى الظلم والجور أحياناً؛ وذلك عندما يتجاوزون الحدود الَّتي وصفها القرآن في وجهين كما يلي: يقضي قانون البدو بأنَّه إذا استطاع القاتل أن يفلت من الثأر فإنَّ أقاربه حتَّى الدرجة الخامسة يكونون معرَّضين لذلك، ويلتزم أقارب القتيل حتَّى الدرجة الخامسة بأخذ الثأر، وهكذا فإنَّ كل قريب للقتيل يتفق نسبه في الدرجة الرابعة مع نسب القتيل ـ الجد نفسه ـ عليه أن يأخذ بالثأر، ويجوز له أن يفعل ذلك مع أحد أقرباء القاتل إذا تعذَّر عليه الثأر مباشرة من الجاني، حتَّى لو كان قريباً من الدرجة الخامسة، وهذه الطريقة في تطبيق القانون تُسمَّى «الخمسة»، وإذا ذهب أكثر من شخص ضحية للثأر فإنَّ عائلة القاتل الأوَّل تستطيع أن تنتقم من العدد المناسب من أقارب القاتل الأخير.

لقد بلغ الوضع الحالي للثأر أن يصيب الانتقام أي فرد من أفراد قبيلة القاتل أو أهل بلده بسبب تعذُّر إثبات صلة القرابة مع القاتل؛ ولذلك ينبغي على الرحالة الأوروبيين أن يتحفَّظوا جداً، وألا يستعملوا الأسلحة النارية إلاَّ في حال الضرورة القصوى؛ لأنَّ ذلك يعرِّض الأوروبيين القادمين من بعدهم إلى خطر الذهاب ضحية للذنب الَّذي اقترفه [الَّذين من قبلهم]، بصرف

النظر عن صعوبة إفلاتهم من الثأر في الصحراء، وليس من الضروري إعلان الحرب أو القتال لأخذ الثأر، ذلك أنَّ الثأر يؤخذ بمجرَّد ما تتاح الفرصة بلقاء العدو، حتَّى وإن كان نائماً.

نتائج ظاهرة الثأر

يمكن سرد الأمثلة العديدة للدلالة على مدى جدِّيَّة واجب الثأر، ومدى قدسيته الَّتي تصوّر أهل القتيل كثيراً ما يتحمَّلون مشقةَ أسابيع طويلة من الفرار يعرِّضون أنفسهم خلالها لخطر الموت، ثمَّ إنَّ الثأر لا ينقضي أبداً، وقد يصيب الشخصَ الَّذي لا يتوقعه البتة حتَّى بعد قرن من الزمن، و«يأخذ البدوي ثأره، وإنْ بعدَ أربعين عاماً» كما يقول المثل العربي[1].

النتيجة الطبيعية لهذه العادة الَّتي ترجع إلى آلاف السنين، والَّتي ينبذها الدِّين على الأقل جزئياً هي أنَّها تؤدِّي إلى وضع يماثل قانون الغاب في أبشع صوره، ويرجع سبب بقائها خاصَّة إلى حملات الغزو والنهب الَّتي لا ينفك البدو عن القيام بها، والَّتي تؤدِّي بطبيعة الحال إلى القتل والإصابة، حيث إنَّه لا يتم

(1) يعبِّر الرقم «أربعون» [عن الكثرة] وعدد كبير غير محدود عند العرب والفرس.

تنفيذ القصاص إلاَّ إذا حدث القتل داخل القبيلة نفسها، فقد نشأت في كامل الصحراء العربية عداوات لا نهاية لها، بدأت منذ آلاف السنين ولا تزال تتطور إلى اليوم وتقضي بذلك على عدد كبير من السكّان، وقد بلغ الأمر في بعض الحالات أنَّ قبيلة بتمامها انقرضت بسبب مسألة الثأر، وقد احتاج الشعب العربي لخصوبة متميزة إلى جانب تعدد الزوجات الَّذي يُعَدُّ ظاهرة معروفة منذ القدم ـ لكي لا يؤول البدو إلى الانقراض التام. وتتمثَّل النتيجة الأخرى لقضية الثأر في الحذر الشديد والانطواء على النَّفس اللَّذين يتميَّز بهما البدوي؛ لأنَّه يعيش في خوف دائم من أن يكون أي شخص تجمعه به الصُدَف طالبَ ثأر أو عدواً قديماً؛ ولذلك يسعى البدو إلى تعويد الأطفال منذ حداثة سنّهم على كتمان أسمائهم وأسماء القبائل الَّتي ينتمون إليها، ولا شك أنَّ هذا هو السبب في كذب البدوي عندما يُدلي بمعلومات رغم الشواهد الكثيرة الَّتي تثبت خلاف ما يقول.

وفوق هذا كله تجعل قضية الثأر أيَّ أساس لسلطة منظمة كما هو مألوف عندنا مستحيلاً في المناطق الَّتي يسكنها البدو، وبناءً على هذا أنكر الوهَّابيون حقّ الثأر في وسط الجزيرة العربية حين اعتقدوا أنَّهم تمكَّنوا من السلطة الكافية، إلاَّ أنَّهم لم يفلحوا في محاولتهم القضاء عليه، وكذلك أخذ محمَّد علي باشا على عاتقه

مهمَّة القضاء على هذه العادة الَّتي كانت مزدهرة حتَّى عند الفلاحين العرب الَّذين آلوا إلى الاستقرار، وقد حاول الروس أيضاً في القوقاز حسب إمكانياتهم وضع حدٌ لهذه الظاهرة الَّتي يمارسها السكَّان بطريقة في منتهى البشاعة، رغم أنَّهم يتقبَّلون بتسامح كبير عادات إسلامية أُخرى رائجة في المنطقة.

مزايا ظاهرة الثار
حق اللجوء «الحماية الصغرى»

حاول الباب العالي وأخيراً ـ حيثما استطاع ـ الحدَّ من قضية الثأر عند القبائل الَّتي أصبحت مستقرة، ونجد في مقابل ذلك أنَّ ظاهرة الثأر تأتي بنتائج في غاية من الإيجابية عند شعب لا يزال على مستوى متواضع من التحضُّر؛ فهي تكبح جماح التوحش وانفجار الانفعالات العنيفة الَّتي تؤدِّي إلى الاعتداءات الجسدية الَّتي قد تنتهي بقتل الخصم، ويتم ذلك عن طريق زيادة الوعي بأنَّ سفك الدماء يؤدِّي إلى سفك دماء أُخرى، وأنَّ الموت لا يهدِّد الجاني وحدَه وإنَّما يهدِّد أهله وذويه أيضاً، وبفضل هذا الوعي نلاحظ أنَّ البدو يجتنبون استعمال العنف، واستخدام القوَّة البدنية مهما كثرت حالات النزاع والشتم، ويمكن ملاحظة الظاهرة نفسها حتَّى عند الحضريين والفلاحين، ويحاول البدو تجنُّب سفك الدماء عند غزو المخيمات المعادية وعند نهب القوافل أيضاً، وفي

أغلب الحالات يتم إخلاء سبيل الخصم إذا استجاب إلى نداء «حَوِّل» وتوقف وسلَّم مطيته وسلاحه لملاحِقه، وهكذا تعزز ظاهرة الثأر احترام حياة الإنسان نفسه، ولا شك أنَّ اعتزاز البدوي ـ خاصَّة أمام الحضريين والفلاحين ـ يرجع بقدر كبير إلى وعيه بأنَّه يملك حماية متمثلة في أهله وقبيلته، وأنَّهم يثأرون له عن أي مكروه قد يصيبه.

وتوجد ظاهرة أُخرى عريقة ومميَّزة تماماً مثل ظاهرة الثأر وهي «الحماية وحق اللجوء»، وتنبع هذه الظاهرة من صفة هي من أنبل الصفات المميزة للطبع العربي ألا وهي السماحة والكرم تجاه المضطَهَد أمام أعدائه، وتجاه الضعيف العاجز أمام القوي المتسلِّط؛ فكل غريب يدخل خيمة بدوي أو يقف أمام حبال خيمة يتمتع بحماية صاحب الخيمة ما دام مقيماً عنده، وإذا تناول شخص طعاماً مع بدوي فإنَّه يتمتع بحق الحماية مدة الثلاثة أيَّام وربع اليوم التالي، حتَّى وإن غادر الخيمة، ذلك أنَّ البدو يعتقدون أنَّ الطعام يبقى في بطن الضيف هذه المدة من الزمن، فإذا تعرَّض الضيف خلال هذه المدة إلى السرقة إلى صاحبها، وتُسمَّى هذه العادة «الحماية الصغرى» الَّتي يجب على كل شخص أن يقدِّمها، وإلاَّ فإنَّه يعرِّض نفسه إلى الإنكار [من قبيلته] والاحتقال العام.

ونجد إضافة إلى ذلك ما يُسمَّى «الحماية الكبرى» أو «العقد» وهي الحماية الَّتي يطلبها المطارَد من قِبَل عدوه أو المطارد له، ومن الواضح أنَّه لا يستطيع القيام بالحماية الكبرى إلاَّ الغني القوي، ذلك أنَّه إذا قام بالمطاردة عدد من الأشخاص، أو ربَّما قبيلة بكاملها فإنَّه يتحتم على الحامي أن يجند أيضاً قبيلة بأسرها لمساعدة المطارَد؛ ولذلك يتوجَّه المطارَد في مثل هذه الحال عادة إلى الشيخ الَّذي قد يقع بذلك في موقف شديد الحرج، لكن بدو الصحراء يؤمنون عادة بالمبدأ الَّذي يقضي بأنَّه لا يمكن رفض حتَّى هذا النوع من الحماية إلاَّ في حالات نادرة جداً، غير أنَّه يجوز للشخص الَّذي يقدِّم الحماية أن يبذل قصارى جهده ليزيد في صعوبة الأمر، ويجعله مستحيلاً على طالبه، وذلك بسبب العواقب الوخيمة الَّتي قد تنتج عن ذلك؛ ولهذا يتعيَّن على المطارَد أن يقوم بشكليات متعددة أبسطها قَوْل عبارة «أنا دخيلك» عندما يطأ خيمة البدوي الَّذي يلجأ إليه ويطلب حمايته، وتعني هذه العبارة: أنا أطلب حمايتك، ثمَّ ينبغي على المطارَد أن يعقد عقدة في كفيته [غطاء رأسه] ويجب على صاحب الخيمة أن يحلّها إذا وافق على حماية المطارَد[1]، لكن الالتزام الأكيد الَّذي يقع على عاتق البدوي يحدث عندما يحصل المطارَد بأي طريقة على تدخل

---

(1) قارن فتزشتاين، المذكور، ص148.

الحريم في الموضوع، وتتمثَّل أوضح طريقة في الوصول إلى هذا الغرض في أن يحاول المطارَد النفوذ إلى قسم النِّساء من الخيمة، وأن يمسك بملابس إحدى النِّساء، أو يضع يده على صدرها، ويعبِّر بذلك عن حاجته إلى الحماية كما يعبِّر عنها الطفل الَّذي يستغيث بامرأة، ويعتبر المضيف طبقاً للعادات البدوية أنَّه من واجبه حماية المطارَد، كما يحمي نساءه وأطفاله الَّذين لجأ المطارَد إلى مسكنهم من الخيمة.

ولقد كان على السياسة التركية الَّتي تسعى إلى إيجاد أوضاع قانونية منظمة أن تقف أيضاً في وجه هذه العادة الَّتي تنبع من إحساس نبيل، ولذلك فقد تراجع عدد حالات طلب الحماية والاستجابة لها تراجعاً ملحوظاً في المناطق الَّتي أصبح تأثير الباب العالي فيها ملموساً خاصَّة في المدن، وقد أصبحت ظاهرة الحماية الكبرى ضرباً من الخيال حتَّى عند القبائل البدوية الصغيرة المتصدعة الَّتي تعيش من النهب والسرقة، هنا أود أن أذكّر بالتجربة الَّتي عشتها بنفسي في مخيم غياث حيث أصر المضيف ذبلان على النَّوم مسلحاً في خيمتي خشية العار الَّذي قد يلحقه لو أقدم أحد رجال قبيلته على نهبي، أو ربَّما قتلي وأنا على مقربة من خيمة أخيه[1].

---

(1) فارن الجزء الأوَّل من البحر المتوسط إلى الخليج، الفصل السادس، ص238.

كرم الضيافة، المظهر الخارجي للبدو

تنبثق ظاهرة الكرم البدوي من المصدر نفسه الَّذي نبعت منه ظاهرة الحماية، ويمكن بطبيعة الحال إرجاع هذه الميزة إلى طبيعة الحفاظ على الذات، حيث إنَّ الصحراء لا تحتوي على فنادق، وعندما يضيف البدو غريباً تاه في الصحراء، أو لجأ لمن يأويه ويطعمه فقد يكون فِعل ذلك بدافع الرجاء في أن يعامل بالمثل في ظروف مشابهة قد يمرُّ بها، ولكن الطريقة الَّتي يمارس بها كرم الضيافة اليوم، والَّتي نعرفها من تصوير المؤرخين والشعراء منذ آلاف السنين تتجاوز بكثير القدرَ الضروري من واجب إكرام الضيف، إذ لا يمكن أبداً أن يغادر شخص خيمة البدوي دون أن يقدَّم له الضيافة مهما كان البدوي فقيراً وإنِ اضطر إلى ذبح آخر شاة يملكها في سبيل إكرامه[1]؛ إذ يسارع صاحب الخيمة إلى الفارس الَّذي لا يزال على صهوة جواده، ويحاول الأخذ بالرمح واللجام، ويمسك الفارسَ بقوَّة ليحمله على الترجل، أمَّا إذا كان الغريب في عجلة من أمره ولا يرغب في النزول في المخيم فعندئذٍ يقدَّم له المضيف لبن الماعز والإبل والمرطبات الأخرى من كل جانب، وبطريقة فيها كثير من التفاني في خدمته، وقد لا يترك

---

(1) إذا كان الضيف ينوي قضاء عدَّة أيَّام في مخيم لا يوجد فيه شيخ غني، فإنَّ العادة تقضي بأن يدعو رجال القبيلة كلٌّ بدوره هذا الضيف لتناول الطعام حتَّى لا يتحمَّل المضيف الَّذي ينام الغريب في خيمته عبئاً لا طاقة له، وعندما تسمح الظروف يقدِّم المضيفون ذبيحة كل يوم للضيف.

البدوي باباً من الاعتذار إلاَّ طرقه ـ خاصَّة عندما يكون صاحبَ شأن مثل رب العائلة أو الشيخ ـ إن لم يستطع أن يقدِّم للضيف أشياء ثمينة، وبخاصَّة القهوة الَّتي ينبغي عليه أن يشتريها من المدينة.

يتميَّز المظهر الخارجي للبدوي المحترم بكثير من الوقار عندما يستقبل ضيفاً، فبينما يعتني رجاله بمطية الضيف، يستقبل رب البيت ضيفه عند مدخل الخيمة، ويجبره على الجلوس في مقعد الشرف، بينما يسارع من كان جالساً هناك بمغادرة المكان، وعندئذٍ يدرك الضيف أنَّه هنا في منزله، وأنَّه عليه أن يتناول الطعام وينام هناك، ويبقى الضيف المبجَّل في العادة مدة ثلاثة أيَّام عند المضيف المحترم، وتشمل الضيافة فيها رفاق الضيف أيضاً، ومن غريب الأمور: هذه العادة الَّتي يبدو أنَّها لم تظهر إلاَّ في الفترة الأخيرة، والَّتي تتمثَّل في أنَّه ينبغي على الضيف أن يمرِّر كيس تبغه على الحاضرين، أو يملأ الغلايين القصيرة المصنوعة من الفخار وتُسمَّى «سبيل» عندما يرميها إليه الحاضرون حتَّى يفرغ الكيس، أمَّا إذا أعجب الضيف بأيِّ شيء عند مضيفه فإنَّ العادة تقضي بأن يقدِّم له هذا الشيء كهدية، إلاَّ أنَّ المسألة تبقى بطبيعة الحال مجرَّد مجاملة في العادة، ثمَّ إنَّ قبول الهدية بهذه الطريقة دون تقديم مقابل لها يعتبر بدوره أمراً غير لائق وغير مقبول.

إذا أخذنا بعين الاعتبار الرغبة الشديدة لكل بدوي في قضاء واجب إكرام الضيف بأفخم طريقة ممكنة؛ فإنَّ ذلك يتسبَّب في ارتباط طبيعي بميول البدو إلى جمع الثروات الَّتي هي السبيل الوحيد الَّذي يسمح بأداء هذا الواجب المشرِّف على أحسن وجه، ومن هذه الظاهرة ومن الفرحة المتميزة الَّتي يبعثها شعور التملك في نفوس الشعوب البدائية، والَّتي يتقاسمونها منذ الطفولة تتضح لنا أسباب الجشع الَّذي يلازم البدوي، والَّذي يؤدِّي في كثير من الأحيان إلى التسول أو إلى التصرف الإجرامي حسب مفاهيمنا ومنظارنا نحن، فلا يأنف البدوي مثلاً أبداً من طلب عباءة أو سلاح من شيخ حصل عليه لِتوِّه هدية من غريب، ونلاحظ خاصَّة أنَّ البدو لا يستنكرون السرقة البتة، بل على العكس من ذلك، فكلمة «حرامي» وخاصَّة إذا كانت تعني السارق المحترف تكاد تكون مصدر اعتزاز وفخر، ويطلب البدو من الأطفال والشبان أن يبرهنوا على كفاءتهم في القيام بعمليات سرقة بمهارة متميزة، وعلى غرار ما كان يفعله أهل سبارطة تماماً، ينال الطفل الَّذي يقوم بذلك دون أن يضبطه أحد كثيراً من الثناء والجزاء.

ويعتبر كل بدوي أنَّه من حقه الشرعي أن يمارس عملية النهب والسلب بشكل علني، وتتمثَّل أبسط طريقة للقيام بعمليات السلب في ذهاب نفر من الرِّجال على الأقدام لسرقة الحيوانات، خاصَّة منها الإبل.

وأكثر هؤلاء اللصوص حذقاً[1] هم الَّذين يستدرجون الكلاب ويفكّون عقال الإبل ويموّهون القفية، في حين يشدّ رجال آخرون الحيوانات لبعضها بعضاً وينصرفون بها، أمَّا إذا أخفق اللصوص في سعيهم وخافوا أن يكشف أمرهم فينبغي عليهم أن يدخلوا عن طواعية خيمة الشخص الَّذي كانوا ينوون سرقته ويعترفوا بأمرهم ويعلنوا أنَّهم عازمون على ترك هذا العمل في سبيل تجنب عاقبة أمرهم، عندئذٍ تتم استضافتهم ويستطيعون وفقاً للأعراف السائدة أن يذهبوا في سبيلهم بسلام، وتحميهم استضافتهم في إحدى الخيام من جميع أفراد القبيلة الآخرين بناءً على قانون الحماية، أمَّا إذا تم ضبط اللصوص بعد القيام بعملية السرقة فإنَّهم يتعرَّضون إلى عقاب شديد، ولا يتعرَّض الجاني إلى القتل خشية الثأر، لكنَّه قد يتعرَّض إلى الضَّرب المبرَح، ثمَّ يسجن في حفرة ضيقة ويشدُّ شعره بحبال، ولا يحصل إلا على شيء قليل من الطعام فتخور قواه، ويشتد ضعفه فلا يستطيع الهرب، وإذا ارتحلت القبيلة فإنَّه يشدُّ على مطية، ويظل اللص في هذا السجن المؤلم حتَّى يفديه رجال قبيلته، أو يتمكن من الخلاص بأيِّ طريقة أخرى، إلاَّ أنَّه قد يطلق سبيل السجين لكي يستطيع جمع مال الفدية، بشرط أن يكفله أحد الأشخاص، ويبدو أنَّه لم يحدث أبداً أن نكث السجين عهده، ولم يرجع عن طواعية

(1) يُسمَّى الرِّجال الَّذين يذهبون للسرقة راجلين [مشاة] «غرابة».

إلى السجن إذا لم يستطع جمع المال اللازم لتسديد الفدية[1].

وتحتاج الغزوات الكبيرة إلى تمهيد أوسع وأدق، وهي تمثل حملات الغزو الحقيقي الَّتي يشترك فيها عدد من الرجال يتراوح بين اثني عشر وعدَّة مئات، وقد لا يشمل رجال القبيلة وحدَهم بل ينضم إليهم في كثير من الأحيان متطوعون من قبائل أُخرى.

ويمتطي الغزاة الخيل في الفصول الَّتي يتوافر فيها الماء في كل مكان، أو يستعملون الإبل «الذلول»، ويأخذ راكب المطية في الغزوات الكبيرة رجلاً آخر خلفه على الدابة «مردوف أو رديف» يترجَّل أثناء المعركة ويواصل القتال راجلاً، أو يسعى إلى جمع أكبر عدد من إبل الخصم، ويأخذ الغزاة في بعض الأحيان عدداً من الخيل يركبونها عند القتال، أو يستعملونها للهرب فحسب، وفي فصلي الشتاء، والربيع تهدف الغزوات إلى الاستيلاء على قطعان الغنم، أمَّا في فصل الصيف عندما يستوجب الأمر قطع مسافات طويلة عبر مناطق خالية من المياه؛ فإنَّ الغزو يهدف إلى سلب الإبل والخيل وحدَها.

البدو خلال الغزو

ينبغي على كل شيخ يعتزّ بمكانته أن يقوم كل سنة بغزوة كبيرة أو عدَّة غزوات تستغرق عدداً من الأسابيع أو الأشهر في بعض

---

(1) قارن بوركهاردت في المرجع المذكور، ص127 وما يليها.

الأحيان، وقد شوهد رجال على مطايا من الإبل قبل تاريخ وصولي بقليل، كانوا قد جاؤوا ضمن غزوة قام بها ابن رشيد في بلاد نجد[1]، وكان على هؤلاء الغزاة قضاء أسابيع عديدة لقطع المسافة الرهيبة من جبل شمر حتَّى منطقة نهر الفرات الَّتي كانوا يقصدون غزوها، وتقدّر هذه المسافة بمائة وعشرين ميلاً ألمانياً في خط مستقيم، وقد رجع بعض رجال شمر من غزوة صغيرة فاشلة قادها الابن الأكبر للشيخ فارس خلال إقامتي في مخيمهم، ولا شك أنَّ العتاد المستعمل في مثل هذه الغزوات هو من أبسط ما يمكن تصوُّره، فإذا تم الغزو على ظهور الخيل فإنَّ الفارس يشدُّ قربة من جلد الماعز ملآنة بالماء إلى بطن الفرس فتحافظ على شيء من البرودة بفضل الظل الَّذي يحميها ويستطيع الفارس أن يشرب منه عندما يترجَّل دون حاجة إلى فكّها من الفرس، ويتعرَّض الفارس ومطيته إلى امتحان عسير جداً في الصبر والجَلَد أثناء الغزو بطبيعة الحال، ويعتبر كل بدوي أنَّ من حقّه أن ينهب ويسلب أي غريب يصادفه أثناء الغزو إذا شعر بأنَّ جماعته أشد بأساً وأكثر قوَّة من القافلة الَّتي ينوي نهبها.

ونستنتج من هذا أنَّ البدويّ يحاول قدر الإمكان الحفاظ على حياة الخصم، ويتوخَّى سبيل الاقتراب من العدو دون إشعاره ثمَّ

---

(1) وصلت غزوة في سنة 1899م أيضاً حتَّى نهر الفرات وقام بها عبد العزيز الَّذي خلف عمه محمَّد بن رشيد المتوفَّى نهاية سنة 1897م في الحكم.

يباغته، وتلوذ الضحية بالفرار في العادة دون أية مقاومة وتترك الأنعام للعدو، وإذا حالف الحظ الغزاة فإنَّ المخيم يقع في أيديهم بتمامه وكماله، بما فيه من خيام ومعدات، أمَّا إذا تبعهم القوم فإنَّهم يضطرون في كثير من الأحيان إلى التخلي عن جزء كبير من الغنيمة، ويفلح الغزاة القادمون من بعيد في الإفلات من مطاردة القبيلة الَّتي هجموا عليها وحلفائها، خاصَّة إذا كانوا في نفر قليل، لأنَّه لا وجود للطرق في الصحراء، وإذا وجدت فقليلاً ما تكون منبسطة، بل هي متموجة الأديم في العادة، ويبرهن الغزاة على مثابرة عجيبة أثناء هربهم فلا يتوقفون ليلاً ولا نهاراً، ويتسنَّى لهم الابتعاد مسافات شاسعة قبل أن يتمكَّن المخيم الَّذي تعرَّض للغزو من جمع الرِّجال والسلاح وإعداد الزاد الكافي لمتابعة قد تستغرق فترة طويلة من الزمن، وفضلاً عن ذلك فقد تعوَّد كل بدوي منذ حداثته أن يجوب شمال الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين، ويعرف مختلف القبائل وديارها الَّتي يستطيع أن يلجأ إليها.

الحروب بين قبائل البدو

يجب التمييز بين الغزو الَّذي يقوم به البدو بدافع الجشع وحب الغنيمة، وبين الحروب الَّتي يضطرون إلى خوضها والَّتي تمثل صراع حياة أو موت؛ لأنَّ قطعان الماشية تتطلب مراعي ذات مساحات شاسعة، فإذا أصبحت غير كافية لأيِّ سبب من الأسباب فإنَّه ينبغي البحث عن غيرها، ولا تترك قبيلة مكاناً خصيباً عن

طواعية إلاً إذا أدركت أنَّها ضعيفة بقدر لا تستطيع معه الدفاع عنه، فإذا غادرت ديارها وجب عليها أن تبحث عن مكان آخر، فتُضطَر إلى إقصاء قبيلة أُخرى عن مراعيها وهكذا دواليك، حيث يمكن لهجرة قبيلة واحدة أن تتسبَّب في حركة نزوح شاملة تمس جميع الأوضاع المتعلقة بزمن معين ويبلغ مداها مناطق شديدة الاتساع، أمَّا إذا رفضت قبيلة أن تتخلى عن مراعيها فإنَّ ذلك يقود إلى الحرب الَّتي قد تدور رحاها طوال عقود عدَّة من الزمن، ويزداد هذا الوضع الدائم من الحروب والَّذي يمثل نتيجة حتمية لحياة الترحال، يزداد حدَّة بسبب العداوات بين القبائل الكبيرة الَّتي تشعر بأنَّها قوميات متميزة، وهكذا ينشأ الخلاف السائد حالياً بين قبيلتي عنزة وشمر، رغم أنَّ ديارهم تفصلها حدود جغرافية واضحة تتمثَّل في نهر الفرات الكبير، وهذا الخلاف الَّذي تعبِّر عنه الغزوات والحروب الدائمة بين الفريقين.

لم تصلنا إلى اليوم تقارير شهود عيان عن تفاصيل القتال المفتوح بين البدو، ولكنَّه يبدو أنَّ المعارك العنيفة بين بعض القبائل تدور على الشكل التالي: يندفع فريق من الشباب «فداوية»[1] ـ من بينهم عدد من الزنوج ـ إلى الصفوف الأمامية لِقتال في حين يسير وسطَ الفريق بعيرٌ قوي مزيَّن بزخرف متميز،

(1) قارن الجزء الأوَّل من البحر المتوسط إلى الخليج، الفصل الرابع، ص131.

ويحمل هودجاً «عطفه» عليه ألوية مختلفة وفيه غادة من أجمل فتيات القبيلة[1] تشعل بأهازيجها جذوة الحماس والشجاعة عند المقاتلين، ويبدو أنَّ شمر يأخذون جحافل من النِّساء إلى المعارك لكي يزِدن بغنائهن في حماس وإقدام الرِّجال، وتُسمَّى هؤلاء النِّساء «عمريات».

أمَّا أسلحة البدوي إذا كان راكباً فهي بالدرجة الأُولى «الحربة» الَّتي يبلغ طولها خمسة أو ستة أمتار وتُسمَّى «شلفه».

سلاح البدو

تُصنَع يد الحربة من قصب البامبو الَّذي يجلب من الهند، أمَّا رأس الحربة «فالة» فتتكون عادة من نصل عريض ذي حدَّين يبلغ طوله قدماً ونصفاً، وكثيراً ما تستعمل لهذا الغرض نصال خناجر جيدة من بلاد فارس، وخلافاً لذلك قليلاً ما نجد رأس الحربة ذات الحوافّ الثلاث على شكل المشرط «رمح»، وقد يثبّت البدوي حزمة من ريش النعام تحت رأس الحربة في بعض الأحيان، غير أنَّ هذه العادة بدأت تنقرض شيئاً فشيئاً بسبب انقراض طيور النعام في شمال الصحراء العربية، وفيما عدا ذلك، كثيراً ما تزيّن رأس الحربة بقطع معدنية تشدّ إليها بخيوط، أو

(1) يقول بوركهاردت في المرجع المذكور، ص118 بهذا الصدد: شاباً أو عجوزاً أو عبداً.

تضاف رأس حربة أقصر عند الكعب لكي يتسنَّى تثبيت الحربة في الأرض، ويتميَّز البدو بمهارة عجيبة في استعمال هذا السلاح البلدي فيمسك البدوي الحربة بقبضته في الاتجاه المعاكس، خلافاً لما اعتدناه عند الأوروبيين، ويرفع ذراعه إلى أعلى ملوّحاً بها في حركة تجعلها تهتزّ، ويستطيع الحفاظ على اهتزازها بسهولة بسبب ركض الفرس الَّذي يمتطيه، ويفضّل البدو الحراب الخفيفة الدقيقة لسهولة اهتزازها، ونلاحظ الطريقة نفسها في مسك الحربة على الألواح الآشورية القديمة، ولا تزال هذه الطريقة مستعملة أيضاً عند شعوب إفريقية المختلفة مثل الصوماليين، ويتم تسديد الطعنة بحركة قصيرة من مفصل الذراع، أمَّا إذا ترجَّل البدوي فإنَّه يحمل الحربة عادة على الكتف بطريقة لا تنمُّ عن أي مهارة أو حذق في استعمالها.

تُسمَّى الحراب القصيرة «قطعة»، وتُسمَّى الرماح القصيرة الصالحة للرمي «خشت»، وقد بدأت هذه الأخيرة الَّتي يبلغ طولها متراً وربع المتر تختفي شيئاً فشيئاً ولا يستعملها إلاَّ الراجلون، ونجد إلى جانب الحربة أنَّ السلاح الأساسي للفارس يتمثَّل في السيف المعقوف، الَّذي يصنع نصله عادة في أوروبا، وتصنع القبضة من القرن أو العظم أو الخشب، وتكون في كثير من الأحيان من الفضة في أسلحة الشيوخ، أمَّا الغمد فهو من الخشب المكسوّ بالجلد الأسود.

ويحمل البدوي سيفه عادة على الجانب الأيسر تحت العباءة،

ويشدّه بحبل ملوَّن خاصَّة باللون الأحمر يمدّه فوق كتفه اليمنى.

لا يستعمل بدو شمال شبه الجزيرة العربية السيف المستقيم الَّذي نجده في جنوب شبه الجزيرة العربية(1) وعند القبائل العربية في ما كان يُسمَّى سابقاً «السودان المصري»(2)، والَّذي وجدته في مسقط ذا طول متميز ودون عارضة حماية(3)، وفي مقابل ذلك يكثر على وجه خاص رواج الحناجر المستقيمة إلى جانب السيوف المنحنية «شبلية».

أمَّا البنادق الَّتي نجدها عند البدو فهي من أنواع مختلفة بداية من بندقية الفتيل «فتيلى» وبندقية القفل الحجري «جفنه»(4) إلى البنادق الأوروبية الحديثة متعددة الطلقات، ورغم أنَّ هذه الأخيرة يزداد رواجها باطّراد فإنَّ البدو لا يريدون التخلي عن بندقية القفل

---

(1) ومن هناك انتقل إلى زنجبار وشرق إفريقيا.

(2) يحمل السيف السوداني المستقيم عارضة حماية تشكل مع النصل على هيئة الصليب ممَّا يذكّر بسيوف الفرسان الأوروبيين القدماء، وتستعمل السيوف السودانية نفسها في الحبشة، ويبدو أنَّ هذه السيوف تحاكي نماذجاً يعود إلى عهد الحملات الصليبية، ولا تزال بعض الأسلحة الأصلية الَّتي تعود إلى عهد الصليبيين موجودة إلى اليوم في السودان.

(3) أنظر الصور آخر الكتاب.

(4) تستعمل هذه التسمية أيضاً البنادق بصفة عامَّة، وفي سوريا تستعمل بصفة خاصَّة للبنادق الأوروبية ذات المأسورتين، وتستعمل قبيلة الصليب على وجه التخصيص بنادق الفتيل، قارن الصورة في الجزء الأول من البحر المتوسط إلى الخليج.

الحجري القديمة، لأنَّه يمكن الحصول على ذخيرتها بسهولة[1]، ويجد البدو مركَّبات هذه الذخيرة في أماكن متفرقة من الصحراء فيصنعون منها باروداً خشناً إلاَّ أنَّه ذو قدرة ضعيفة على الانفجار حيث ينبغي استعمال ما لا يقل عن حفنة منه لإطلاق الرصاصة مسافة لا تزيد على بضع مئات من الأقدام، أمَّا الفتيل فيستمدّه البدوي من قطعة يمزِّقها من أصفل قميصه الَّذي يشهد في كثير من الأحيان على نتائج هذا الاستعمال، وأمَّا القذائف فيصنعها البدو من صخور الحديد البنِّي الموجودة بكثرة في الصحراء. ويصنع البدو قذائف من الرصاص أيضاً كذلك قذائف رش (خردق) تستطيع أن تسبِّب جراحاً بالغة الخطورة.

تكون البنادق[2] في العادة ذات طول متميز، وتحمل في كثير

---

(1) تصادر الحكومة التركية ـ الَّتي تدرك تماماً خطر تحسُّن التسليح عند البدو ـ كلّ سلاح ناري ذي تزويد من الخلف تعثر عليه عندهم، ورغم ذلك نجد حركة استيراد نشيطة لهذه الأسلحة، ويُقال: إنَّ تاجراً مسيحياً معروفاً جلب آلاف الأسلحة لقبائل المنتفك، وقد أعرب لي ذبلان عن أسفه لأنَّ بدو الغياط قد حسَّنوا عتادهم الحربي؛ ذلك أنَّه يعتقد أنَّ معارك رجال قبيلته تسفك كثيراً من الدماء بسبب رغبتهم الجامحة في الغزو والقتال.

(2) تحمل البنادق أسماء مختلفة، فأمَّا تسمية «بندقية» المأخوذة عن المصريين والَّتي تنسب هذا السلاح إلى مدينة البندقية، أو ربَّما تعني الأنبوب الَّذي يرمى به ثمر البندق والَّذي يُسمَّى في اللغة التركية فوندوك، وتستعمل أيضاً تسمية «مكحلة» وتعني «السوداء» خاصَّة في بلدان المغرب، ثمَّ نجد تسمية بارودة «في سوريا وهي مأخوذة من البارود، وأخيراً نجد تسمية «تفك» وهي مأخوذة من اللغة الفارسية، هذه التسمية الأخيرة منتشرة في كامل بلاد ما بين النهرين، وعند المنتفك وفي مسقط.

من الأحيان عند الفوهة جزءاً على هيئة الشوكة يستعمل في القتال المباشر، كما يستخدم كحاملة للبندقية عندما يتّخذ المقاتل وضع الانبطاح، ويصنع هذا الجزء عادة من الحديد لكنَّه قد يكون أحياناً من قرون البقر الوحشي، وهو نوع من الظباء البيضاء الَّتي تعيش في شمال الصحراء العربية خاصَّة في صحراء النفود، ويبلغ حجمها حجم الإبل، وتكاد قرونها تكون مستقيمة في شيء بسيط من الانحناء باتجاه الخلف، وهذه القرون حادة ويبلغ طولها متراً وتتميز بشدَّة صلابتها، وتستعمل هذه البنادق ذات الشوكة في صيد الغزلان أيضاً، فينبغي على الصياد في كثير من الأحيان أن يطلق النَّار من بعيد وهو في وضع انبطاح هادىء؛ ولذلك يحتاج إلى رافعة تستند إليها البندقية، أمَّا المسدَّسات «بشتاوات» فهي نادرة نسبياً، ويفضّل البدو من بين المسدَّسات الحديثة ذات الطاحونة ـ يحرّف البدو الكلمة الإنجليزية من ريفولفر إلى «ولور أو ورور أو ريللور» ـ يفضّلون ذات العيار الأكبر والماسورة الطويلة، وكثيراً ما نجد إلى جانب الأسلحة النارية الهراوة بمختلف أشكالها من العصا الكبيرة «مضروب» إلى الهراوة الحديدية، ويكثر استعمال الهراوة [مكّوار] «دنبوز أو دبُّوس» ويبلغ طولها بين 35 و40 سنتيمتراً، وتحمل رأساً من الحجر أو القار على شكل الكرة، وهي السلاح العادي عند جميع الفلاحين وجميع البدو في جنوب بلاد ما بين النهرين، وتستعمل المطرقة ذات الرأس الصغيرة المصنوعة من

الحجارة أو الفأس الَّتي تُسمَّى «كلنك» سواء أكان سلاح ضرب أم رمي أيضاً، ولا تزال المقاليع البدائية تستعمل بكثرة إضافة إلى ذلك، أمَّا عصا القذف فتستعمل خاصَّة كسلاح للصيد.

الصيد

أمَّا القوس والسهم فهي دون شك من الأسلحة الَّتي أصبحت نادرة الاستعمال، وأمَّا ما تبقَّى من عُدَّة القتال القديمة فنجد منها إلى اليوم «الدرع»[1] الَّتي لا يستعملها إلاَّ بعض أعيان البدو، ولا حاجة للإشارة إلى أنَّها لا تمثل أي حماية أمام الأسلحة النارية الحديثة[2].

يستعمل الفارس من بين هذه الأسلحة الكثيرة السيف والرمح في العادة ويستعمل المشاة البندقية، أمَّا الصيد[3] فيتم عادة عن طريق التربُّص بالحيوانات ـ خاصَّة الغزلان ـ عند مواقع ورودها ورميها من المخبأ، وفي كثير من الأحيان تصنع لهذا الغرض مواقع للرماية باستعمال الحجارة الَّتي يختبىء وراءها الصياد، ويبدو أنَّ المنتفك يتخذون مجناً في لون الأرض ويقتربون في حذر

(1) توجد الدروع في المناطق الإسلامية بكثرة داخل إفريقيا، وقد تم العثور على عدد كبير منها كان يلبسها أتباع المهدي أثناء المعارك الأخيرة في السودان المصري.

(2) يذكر بوركهاردت في المرجع المذكور، ص44: الخوذة الحديدية «طاس» أيضاً، ويبدو أنَّ المحنّ «كلنكن» لا يزال يستعمل في جنوب بلاد ما بين النهرين.

(3) يبدو أنَّ أفضل الصيادين ينتمون إلى قبيلة صليب.

من الحيوانات البرية، وتطارد الأرنب البرية والداجنة باستعمال السلوقي، أو تصطاد بعصا الرماية الَّتي يحسن الشبان استعمالها في صيد القطا والحجل والدرَّاج الَّتي يعثرون عليها عند مواقع المياه، ولا يرمي البدوي الطير أبداً أثناء الطيران، الأمر الَّذي يصعب عليه في جميع الأحوال نظراً لسلاحه الناري البدائي، ويستخدم شمر الصقور في صيد الحيوانات الكبيرة والغزلان والحبارى أيضاً، ولا نجد الصقور في الغالب إلاَّ عند الشيوخ لأنَّ العناية بها تقتضي تكاليف عالية، ويأخذ الصقر مكانه في الخيمة على حاملة أُفقية في قسم الرِّجال، ولا يمارس الصيد بالصقور إلاَّ في الصباح الباكر، لأنَّ هذه الطيور يصيبها الإرهاق في النَّهار بسبب حرارة الشَّمس فتصبح فريسة سهلة للنسور والعقبان، ويرسل الصقر إثر الغزلان أيضاً، إلاَّ أنَّه يستعان في ذلك بالسلوقي لأنَّ الصقر لا يملك من القوَّة ما يستطيع به طرح الفريسة أرضاً.

الإبل وأسماء عدَّة ركوبها عند العرب

الإبل هي الثروة الأساسية للبدوي، غير أنَّه لا توجد إحصائيات موثوقة لعدد الإبل عند القبيلة، لكنَّه قد يبلغ الآلاف، أمَّا التعداد الَّذي تقوم به السلطات التركية حالياً لغرض جمع الضرائب فلا يعطي إلاَّ فكرة غير دقيقة عن الواقع، وعلى كلِّ حال فهو أدنى بكثير من العدد الحقيقي الموجود، وتملك كل قبيلة ـ وأحياناً كل فرع منها وكل شيخ من الشيوخ ـ وسماً خاصاً تحمله

الحيوانات الَّتي يملكها[1]، وقد يعثر المرء في كثير من الأحيان على هذا الوسم منقوشاً على الأحجار في الصحراء[2]، وإلى جانب اللبن واللحم يُستفاد من وبر الإبل الَّذي يغزل، ويُستعمل في صنع الخيام وغيرها أو يُباع في القرى المجاورة، وقد انتعشت تجارة الوبر مؤخراً في شمال الصحراء العربية، أمَّا الأسواق الأساسية فهي دمشق وحلب والدير والموصل وبغداد.

أسجل فيما يلي الأسماء العربية لأجزاء سرج الإبل:

الشداد: سرج الركوب.

الهدوب: خيوط متدلية وما شابه ذلك، والهدف منها هو الزينة.

الغزالة: الأوتاد أو القطع الخشبية عند أطراف السرج من الأمام والخلف.

الغزالة القدمانية: الوتد أو القطعة الخشبية الأمامية للسرج.

---

(1) يملك كبار تجار الإبل (العقيل) علامات وسم خاصة بهم أيضاً، وتقابل هذه العلامات ما نستعمله نحن في تربية الخيول، أو ما يستعمله الأمريكيون في مجال تربية البقر.

(2) نجد صوراً لهذا الوسم عند بوركهاردت ـ ملاحظات حول البدو، ص161، قارن دافتي أيضاً ـ رحلات في الصحراء العربية، المجلد الأوَّل، ص125، ويتمثَّل وسم شمر بلاد ما بين النهرين في صليب ممدود.

الغزالة الورانية: الوتد أو القطعة الخشبية الخلفية للسرج.

الظلفة: القطع الخشبية العريضة الموجودة بين الأوتاد المذكورة والّتي تكوّن الهيكل الفعلي للسرج.

الجلمود: الحبال المصنوعة من أوتار عضلات الإبل والّتي تربط الأجزاء الخشبية للسرج إلى بعضها.

البطان: الحزام الأمامي للسرج.

الحقب: الحزام الخلفي للسرج[1].

---

(1) يطلق البدو المصريون على السرج اسم الغبيط ـ قارن يعقوب في المرجع المذكور، ص68.
أمّا الأسماء الأخرى المستعملة حالياً في مصر فهي كما يلي: الوسادة الجلدية المثبتة أمام الوتد الأمام «غزالة» والّتي يضع عليها الراكب رجله المثنية تُسمّى «أمّا الوسائد المحشوة بالقش أو بالنباتات الصحراوية ـ خاصة الشيح ـ والّتي تأخذ مكانها تحت الهيكل الخشبي للسرج فتُسمّى «بلود» ويُسمّى الحزام الأمامي ـ مقدم ـ والخلفيّ ـ بطانة ـ، أمّا القطع المتدلية من الحزامين فتُسمّى «شراريب: ج شرّابة»، ويُسمّى المقعد الفعلي من السرج «القعد» والفراء الموضوع على المقعد «فروة» والعصا «محجن» إذا كانت ذات طرف معقوف إلى أعلى على شكل فأس، وتصنع هذه العصا عادة من نبات الطرفاء أو من شجر اللوز، أمّا الزمام فيُسمّى الجزء العلوي من لجام الجمل الّذي يمسك الأجزاء الجلدية من الرسن وراء الرأس «عضر» ويزيّن هذا الجزء غالباً بكثير من القطع المتدلية.

الأغنام والماعز

يربّي البدو الأغنام والماعز أيضاً ولكن بدرجة أقل من الإبل، وتجمع قطعان الأغنام والماعز تحت تسمية «غنم»، وتشترى جميع هذه الحيوانات من طرف تجار متنقلين أو تجلب إلى أسواق المدينة.

أمّا ملكية الخيل فهي علامة من علامات الغنى المتميز، ولا شك أنّ عدد الخيول الجيدة اليوم ليس مرتفعاً عند البدو مثلما يعتقد البعض، ويجوز التساؤل بصفة عامّة عمّا إذا سبق لهذا العدد أن كان في أي وقت مضى مرتفعاً بالقدر الّذي يعتقده النّاس، ومن الواضح أنّ عدداً كبيراً من الخيول يلقى مصرعه في حملات الغزو الدائمة والحروب الطويلة الأمد، وكذلك يغادر كثير من الخيول موطنها لأنّها تُهدى إلى الموظفين الأتراك في العادة، وقد حدثت الثغرة الكبيرة الأولى في ثروة الخيول العربية ـ كما يبدو في هذا القرن ـ في عهد الخديوي عبّاس الأوّل الّذي غرف ملء يديه من أموال الخزينة المصرية، وكان يسعى إلى توثيق العلاقات مع العرب[1]؛ فقد اشترى من البلاد العربية أعداداً كبيرة من الإبل وخاصّة من الخيول العربية الأصيلة، يزعمون أنّه جلب عدداً يزيد على ألف فرس أصيل لاقتنائها في اسطبلاته بمصر.

(1) قارن الجزء الأوّل، من البحر المتوسط إلى الخليج، المرجع، ص202.

ونلاحظ أثراً بالغاً لشغف الحكومة الهندية بالخيول العربية الَّذي ظهر في العقود القليلة الأخيرة، ولعملية تصدير الخيل بالجملة إلى بومباي بموافقة السلطان[1]، أمَّا السوق الأوروبية فلا يصل إليها إلاَّ عدد قليل جداً من الخيول الأصيلة فعلاً، خاصَّة أنَّ الحكومة التركية منعت تصدير الخيول الأصيلة منعاً باتاً، سواء أكانت جياداً أم أفراساً.

ويُعَدُّ وسط البلاد العربية المتمثل في بلاد نجد ومجموعة الواحات الواقعة جنوبها الموطن الأصلي للخيول الأصيلة، ونجد في الصحراء العربية الوسطى أنَّ عدد الخيول الأصيلة أقل بكثير ممَّا يعتقد في العادة[2]، وينخفض هذا العدد بشكل ملفت للنظر إذا

---

(1) أنظر ج2، الفصل 3 من البحر المتوسط إلى الخليج، ص120 بخصوص تصدير الخيول إلى بومباي وبيعها لتحقيق أهداف الحكومة المصرية.

(2) يحدد أويتنغ ـ مباحثات جمعية الجغرافيا في برلين 1886م المجلد الخامس، ص276، بناءً على تحقيقاته المختلفة عدد الخيول الأصيلة الموجودة في بلاد نجد بخمسمائة رأس يملكها كلها ابن رشيد وعائلته، أمَّا لبلانتس في المرجع المذكور المجلد الثاني، ص12 فيذكر أنَّه بناءً على تصريحات ابن رشيد نفسه أنَّ هذا الأمير يرسل سنوياً مائة من أَي تبلغ سنة من العمر إلى الكويت على الخليج العربي ومن هناك تبعث إلى بومباي مقابل مائة جنيه كمتوسط ثمن لكل رأس منها، وقد عثر أويتنغ في حايل على ثلاثين حصاناً فقط عند الأمير. بينما عدَّ البلانتس ـ رحلة إلى نجد، ص125: ثمانين إلى تسعين رأساً في المكان نفسه، كان ما يناهز نصفها من المهور الصغيرة. قارن البارون نولده ـ رحلة

طبَّقنا المقاييس الصارمة الّتي يستعملها البدو في الحكم على الخيل الأصيلة.

الخيل الأصيلة الخمسة

أمّا سكّان المدينة فمقاييس حكمهم على أصالة الخيل أقل صرامة بكثير من مقاييس البدو، ويعتبر البدو أنَّ خمس عائلات من الخيل وحدها تتمتع بصفة الأصالة الخالصة، وهي حسب المعتقدات الشعبية سلالات لخمس أفراس ميّزها النبي محمَّد بأنَّها أصيلة وتُسمَّى «الخمسة»، ولا يمكن بطبيعة الحال أن نعير هذا الاعتقاد أي أهمية لأنَّ الخيول الأصيلة كانت موجودة قبل عهد النبي بكثير، لكن القول بنطبق فيما يتعلق بهذه الظاهرة على الرأي الّذي لا يزال منتشراً إلى اليوم، والّذي يقول: إنَّ الخمسة تنسب إلى خيول الملك سليمان الّذي يعتقد البدو أنّه كان ملكاً شديد البأس وله علاقة مع الجن أيضاً.

ويسود الخلاف حول أسماء الخمسة الأصيلة، أمّا العدد

داخل البلاد العربية وكردستان وأرمينيا، براوتشفايج 1895م، ص135: حسب معرفتنا لبلاد نجد لا تستطيع هذه الأرض أن تكون مهداً لتربية الخيول بأعداد كبيرة نظراً لقلّة واحاتها وقلّة نباتاتها الموجودة في فصل الربيع فحسب، لكن يتمكن سادة نجد الأقوياء من الاستيلاء على عدد من الخيول الأصيلة عن طريق الغزو، وقد تضاءل عدد الخيول وسط البلاد العربية في الآونة الأخيرة بسبب إرسال دفعات منها يبلغ عددها المائة كهدايا للسلطان في القسطنطينية.

«خمسة» فلا ينازع فيه أحد، ويعتقد كثير من النَّاس أنَّ جميع الخيول الأصيلة ترجع إلى فرس واحدة هي الفرس الأسطورية كحيلات العجوز[1] وأنَّها خلفت جميع السلالات الخمس، ومن الملفت للنظر أنَّ النَّاس يذكرون الكحيلان بانتظام على أنَّها إحدى السلالات، ولكل سلالة فروع خاصة بها، أمَّا السلالات الَّتي تحظى بأوسع نطاق من الإجماع على أنَّها أصيلة فهي: كحيلان، سقلاوي جدراني، حمداني سمري، معنقي، رشان، أو سلالات كحيلان وحمدان وحدبان وسقلاوي وعبيان[2]، وكثيراً ما تعتبر خيول جلفان ودحمان أصيلة أيضاً إلاَّ أنَّها تعتبر بصفة عامَّة نصف أصيلة مهجنة «كديش»، ويبدو أنَّ سلالة سقلاوي هي الأكثر عدداً، ونذكر من السلالات الجيدة الأُخرى: عضيمان، عضيمان عامر، رويشة، معزنية، أو جنوب، وطويشة وغيرها.

تقويم الخيل «السلالة»

يراعى النسب عند تقييم الخيول أكثر ممَّا تراعى البنية، ولا توجد إسطبلات تربية الخيول في الصحراء عند الرحّل ولا عند

---

(1) فارن تويدي ـ الخيل العربية، لندن 1894م، ص233، وقد أخذنا من هذا الكتاب وبموافقة الناشر الصورة الَّتي تجدونها في الصفحة التالية.

(2) فارن بوركهاردت في المرجع المذكور، ص165 وما تبعها، وبلانت ـ القبائل العربية المجلد الثاني، ص271 وما تبعها. وأبتن ـ اكتشافات في الصحراء العربية، لندن 1881، ص297 وما تبعها، لايارد ـ في المرجع المذكور، ص249 وما تبعها. تويدي ـ في المرجع المذكور، ص235.

السكان المستقرين، ولقد رأيت في دمشق الإسطبل الوحيد الَّذي أنشىء دون قصد على الطريقة الأوروبية، وهو ملك لمحمَّد باشا سعيد الَّذي يقود قوافل الحجيج السورية على مدى سنين طويلة[1]، وقد أصبح الحفاظ على أصالة الخيول في البلاد العربية معرَّضاً لخطر كبير في الفترة الأخيرة، ولا يتخلى البدوي عن فرسه إلاَّ مكرهاً لأنها تلد لصاحبها أمهاراً تزيد في ثروته، ثمَّ لأنَّها تصلح للغزو أكثر بكثير من الحصان، وأوَّل الأسباب في ذلك هو أنَّها تصهل أقل منه بكثير، وهي بذلك أقل لفتاً لنظر العدو وإثارة لانتباهه عند الغزو، وإذا اضطر البدوي إلى إهداء الخيول فإنَّه يهدي حصاناً ولا يتخلى إلاَّ بصعوبة عن فرس، وقد كان البدو في العصور القديمة يقتلون في بعض الأحيان ذكور الأمهار في الأماكن الَّتي تقلّ فيها المراعي وخلال الفصول الصعبة، أمَّا اليوم فيبدو أنَّ بيع ذكور الخيل[2] قد خفَّض كثيراً عدد خيول اللقاح في بعض مناطق البلاد العربية حيث تضاءل تدريجياً عدد الخيول الأصيلة الذكور المستعملة في تلقيح الأفراس العتيقة.

البنية

الخيول الأصيلة صغيرة الحجم مقارنة بما نعرفه وما تعوَّدنا

---

(1) قارن الجزء الأوَّل من هذا المرجع، الفصل الثاني ص77 تهتم عائلة الخديوي اهتماماً بالغاً بتربية الخيول الأصيلة منذ عهد عبَّاس الأوَّل.

(2) كثيراً ما يشتري التجار الخيول من البدو عندما يكون عمرها سنة واحدة فقط.

عليه من الخيل، ولا تصل إلاَّ نادراً إلى قامة خيول الأولان عندنا، وتبلغ قامة الخيول الأصيلة عادة بين مائة وأربعين ومائة وخمسين سنتيمتراً، ولا تتجاوز قامات الخيول الأصيلة هذا القدر إلاَّ نادراً، في حين أنَّها تظل في أغلب الأحيان تحت مائة وأربعين سنتمتراً، وفي مقابل ذلك تتميَّز الخيول الأصيلة بقوائم دقيقة قوية، وتشبه رؤوسها رؤوسَ الخيول الأصيلة الإنجليزية[1]، لكن لا نجد الرأس المكورة أبداً عند خيول البدو، وتنفتح مناخير الخيول العربية الأصيلة على اتساعها عند الهيجان، وتبدو حمراء في لون الدم، أمَّا العيون فهي واسعة ومتوقِّدة، والآذان طويلة ودقيقة، ويرى البدو أنَّها تشابه آذان الغزلان، وهكذا فهي ليست صغيرة كما يعتقد الأوروبيون عادة، وتزداد الرقبة دقة باتجاه الرأس، أمَّا القوائم النحيفة الدقيقة فتعلوها أوراك طويلة، ومفاصل قوية في الركبة، ثمَّ تأتي الرسغ الدقيقة والحوافر القوية ذات السنابك الملفتة للنظر في صغرها، والَّتي تكون عادة مستديرة الشكل، وتزداد قيمة الخيل الأصيلة كلَّما كان ذيلها في وضع أفقي.

(1) قارن ج2، الفصل 3 من البحر المتوسط إلى الخليج، ص122 فيما يتعلق بانحدار الخيول الإنجليزية الأصيلة من الخيول العربية.

اللون

نذكر «المثابرة والحماس» من بين الخصال الحميدة للخيل العربية الأصيلة، ومع ذلك فإنَّ طبعها يظل ليناً جداً، وتعلقها بصاحبها كبيراً بسبب حسن معاملته لها رغم عنايته القليلة بها، ثمَّ نذكر خصال الإقدام والذكاء والغريزة الحادة، وتتميَّز هذه الخيول إضافة إلى ذلك بقناعتها النادرة[1] وشدَّة تحملها، ومرونتها في الحركة، ويهتم البدو بهذه الميزات الأخيرة مثل اهتمامهم بالسرعة، ويبدو أنَّ الخيل العربية تلعب دور جهاز الإنذار في كثير من الأحيان فتعلن عن اقتراب الغريب عن طريق دق الأرض بسنابكها، أمَّا مظاهر النقص عندها فهي كما ذكرنا صغر الحجم إلى جانب ابتعاد القوائم الأمامية عن بعضها في غالب الأحيان، وأخيراً عدم قابليتها لتعلم الخب والقفز[2]، والبدوي فارس بطبيعته ولا يستطيع إلاَّ نادراً أن يصقل ويهذّب طريقة سير مطيته باستعمال مهارته في الركوب، فهو يجلس على ظهر الخيل متقدماً جداً، ويترك للحصان مهمَّة الحفاظ على نفسه من التعثر، وكثيراً ما يطلق له العنان ساعات طويلة أثناء السير.

ولا يمثل اللون علامة على الأصالة أبداً، ولكن البدو

---

(1) من الملفت للنظر قدرة الخيول العربية على الاكتفاء بكمية قليلة من العلف أثناء الغزو رغم اضطرارها إلى المثابرة على السير أسابيع عديدة في بعض الأحيان دون راحة أو توقف.

(2) قارن نولده في المرجع المذكور، ص140.

يفضلون عادة اللون البنّيَ الَّذي يطلقون عليه «الأحمر» وإلى جانب ذلك يأتي في تقويمهم اللون الأصفر، أمَّا إذا مال لون الحصان إلى الداكن فيُسمَّى «أزرق» ثمَّ نجد «الأبيض» و«الأشقر» و«الأدهم»، وهذا الأخير مكروه في بعض الأماكن لأنَّه يُقال: إنَّه نذير شؤم، وكذلك يُقال عن الأشقر؛ ولذلك فإنَّ هاتين الفئتين أقل ثمناً من غيرهما[1].

تدعى جميع الخيول الَّتي لا يمكن إثبات أصالة أُمَّهاتها، والَّتي لا تنتمي إلى الخمسة هجينة «كديش»، غير أنَّه يوجد ضمن هذه الفئة بعض الخيول الرائعة في الجمال، والَّتي قد تكون أحياناً كبيرة الحجم وقوية بشكل مثير، والَّتي لا ينقصها عن الأصيلة في الاستعمال إلاَّ القليل.

ولا يتمثل علف الخيل أساساً إلاَّ فيما يمكن العثور عليه في البراري، وفي فصل الربيع تعطي النباتات القوية والأعشاب الرطبة أحسن أنواع العلف، أمَّا عندما تحرق شمس الصيف نباتات الصحراء فلا بدَّ عندئذٍ من الحصول على علف آخر يتمثل خاصَّة في الشعير والتبن، لأنَّ الشوفان غير معروف في المشرق كافة، ثمَّ إنَّ استعماله كعلف قد يتسبَّب في ارتفاع درجة حرارة الجسم عند الحيوانات.

---

(1) نجد المعتقدات نفسها عند الأتراك، يوجد تقرير مفصل عن مختلف الألوان عند تويدي في المرجع المذكور، ص262 وما يليها.

العلف واللجام

إنَّ التمر يستعمل علفاً للخيل أيضاً، وتقدّم إليها حتَّى الأسماك الجافة والطازجة في المناطق الواقعة على البحر[1]، ويحب البدو إعطاء لبن الإبل إلى الخيول الصغيرة، ويزعمون أنَّ ذلك يمدها بقوَّة متميزة[2]، أمَّا العناية بالخيول فهي ظاهرة منعدمة انعداماً تاماً، إذ لا يكاد البدوي ينظف الخيل أبداً، ولذلك يظل مظهرها في العادة خالياً تماماً من الجاذبية، أمَّا التعويض الوحيد عن التنظيف فيتمثل في انصراف الخيل إلى النكش في رمال الصحراء، وفي فصل الأمطار يُدخل البدو الإناث من الخيل إلى الخيام حيث تأخذ مكاناً شرفياً في قسم الرِّجال في حين تبقى الذكور في الخارج، ولا تغطى إلاَّ بما يُسمَّى «جلال» أو «عباية» قديمة، ويشير هذا بطبيعة الحال إلى دليل آخر على تفضيل الفرس على الحصان.

اللجام الَّذي يستعمله البدو بسيط، ويتكوَّن عادة من زمام بدائي يتمثَّل في حبل واحد يثبت على العنق خلف الأذنين، إضافة إلى سلسلة تحيط بالرأس عند الظهر الأنف، وأمَّا المقود فهو عبارة عن حبل يثبت عند السلسلة، ويمرر من الجهة اليسرى لرقبة الحصان، ويبقى الفم حراً حتَّى تستطيع الدابة أن تأكل من أعشاب

(1) قارن تويدي ـ في المرجع المذكور، ص12.
(2) وتتغذى الخيول بما يُسمَّى «المريسة» أيضاً.

البراري، وأن تشرب في أي وقت تشاء، وقد نجد اللجام الحادّ عند بعض البدو المستقرين عند أطراف الصحراء وخاصَّة النوع الَّذي يتكوَّن من قطعتين من القضبان الحديدية تجمع بينهما حلقة معدنية متحركة تحيط بالفك الأسفل للحصان[1].

ولا يُعَدُّ السرج جزءاً ضرورياً من العُدَّة، وهو يشابه خاصَّة ما هو معروف عندنا بالمقعد الصغير، ويتم تنجيده تنجيداً ثقيلاً، أمَّا الفرش الَّذي يوضع عليه فيثبت عادة في السرج ويتركب غالباً من طبقات كثيرة، ولم أعثر أبداً في سوريا وبلاد ما بين النهرين[2] على السرج المعروف في كامل إفريقيا الغربية، وهو سرج ذو مسند خلفي، ورأس أمامية قد يبلغ ارتفاعها عشرين سنتيمتراً.

الحدوة، وقاية السنابك

ولا يستعمل البدو الركاب إلاَّ نادراً في الصحراء، بينما يستعمل الأكراد والشركس في بلاد ما بين النهرين الركاب المعروف، والمستعمل عند العرب الَّذين يقيمون في المدن،

---

(1) تتنود الخيول العربية على أي نوع من اللجام، وقد وجدت أن الرسن الخفيف يتناسب تماماً مع هذا الغرض، ويستحسن استعمال مزلاج للفم بسبب حركات الرأس الفجائية الَّتي تقوم بها الخيل.

(2) في المدن الساحلية السورية وفي مصر تصنع اليوم بكثرة سروج مقلدة تقليداً سيِّئاً عن السروج الإنجليزية ليستعملها أهل البلد المتأثرين بالأوروبيين، وأنصح المسافر الأوروبي بأن يجلب معه سرجه.

والَّذي يشابه في شكله المحرفة، ويكون إلى يمين ويسار القدم على هيأة المثلث، ويستعمل البدوي الكعب الحديدي لحذائه كمهماز[1]، ويركب الرجل العادي حافي القدمين، ويستعمل في القتال حزاماً مزوداً بأسنان حديدية يربطه حول كاحله، أمَّا المهماز الكبير الَّذي يبلغ طوله عشرين سنتمتراً والَّذي يتركب من صفيحة حديدية مستطيلة أو مدورة والَّذي يستوجب السرج المرتفع استعماله عند سكان شمال غربي إفريقيا فإنَّني لم أعثر عليه عند أهل شمال الجزيرة العربية.

وتختلف الحدوة عمَّا هو معهود عندنا، ولا تحملها الحيوانات في العادة، لكنَّها تثبت أحياناً فتغطي جزءاً من السنابك أو تغطيها كلها، ولا تترك منها إلاَّ بعض الفتحات الصغيرة[2]، وكثيراً ما يترك البدو حافراً خلفياً للحصان بلا حدوة حتَّى يزداد قدرة على الحركة أثناء المعارك، ولم يعرف الطب البيطري عند البدو تطوراً كبيراً، وتتمثَّل أهم طريقة لعلاج الحيوانات عند البدو في الكيّ «الوسم»، تماماً كما هي الحال في علاج الإنسان عندهم.

تجارة الخيل

يمكن القول بصفة عامة: إنَّ البدو لا يعرِّضون الخيل إلى متاعب كبيرة، فالفارس البدوي لا يتجاوز إلاَّ نادراً وتيرة المشي

---

(1) قارن الصور عند تويدي ـ في المرجع المذكور، ص180 و202 و203.
(2) قارن الصور عند تويدي ـ في المرجع المذكور أيضاً.

العادي ما عدا القتال أو عندما يكون مطارداً، فعندئذٍ يلجأ إلى الركض، ولكنَّه ما يلبث أن يعود إلى السير البطيء حالما يزول الخطر، أمَّا الخبّ فهو غير معروف مطلقاً سواء أكان عند البدوي أم عند الحضري، وتثير طريقة الأوروبيين في الخب مرحاً كبيراً لدى البدو، ويعتقد الشرقي أنَّ الخب يفسد السير الجيد للخيول الَّذي يوليه بحق اهتماماً كبيراً، وحتَّى إذا بدا سير الخيول العربية متعثراً في بعض الأحيان بالنسبة للمقاييس الأوروبية، فإنَّها نادراً ما تعثر حقاً عندما يطلق الفارس لها العنان، ولا تتعلم طريقة السير الَّتي تُسمَّى «رهواً» إلاَّ الخيول الهجينة الَّتي ترتفع مكانتها لهذا السبب.

ويجلب البدو ذكور خيلهم لبيعها في أسواق المدن الكبيرة المجاورة للصحراء خاصَّة دمشق وحلب والموصل وبغداد، وقد بدأ التجار يجوبون الصحراء في الآونة الأخيرة ويشترون الخيول في المكان نفسه ثمَّ يبيعونها في المدن أو إلى خارج البلاد خاصَّة إلى مصر والهند، أمَّا سوق مصر فهي سوريا، خاصَّة وأنَّ الحكومة المصرية ترسل كل سنة منذ بداية الاحتلال الإنجليزي بعثة تتوجَّه إلى دمشق لشراء الخيول، ويتراوح الثمن الَّذي تدفعه الحكومة بين خمسة وعشرين وثلاثين جنيهاً على كل دابة، ويتم اختيار الخيول ووسمها في سوريا، وينبغي على البائع أن يوصلها إلى مصر،

ويتحمَّل في ذلك التكاليف والمخاطر، ويتم اختيار طريق البر في العادة للقيام بهذه المهمَّة، ويتحمَّل البائع مسؤولية عبور الخيول للحدود المصرية التركية رغم حظر التصدير[1]، ولا يتم تسديد ثمن الشراء إلاَّ بعد وصول الخيل إلى مصر، وتقدَّر تكاليف النقل شاملة مصاريف عبور الحدود الَّتي يتضمنها الثمن المتفق عليه أربعة جنيهات، وتستغرق الرحلة قرابة ثلاثة أسابيع، وأهم من جَلْب الخيول إلى مصر هو تصديرها إلى الهند كما ذكرنا آنفاً، وقد بدأ هذا التصدير منذ القرن الماضي، خاصَّة إلى بومباي، إذ تشتد المنافسة بين الخيول العربية والخيول المحلية، وغيرها من الخيول الأخرى الَّتي يتم جلبها من أستراليا، والَّتي هي أكبر حجماً من الخيول العربية مثل الوايلر Whaler، وقد عمَّمت الحكومة الهندية استعمال الخيول العربية في جميع كتائب الفرسان تقريباً، ويصرف النظر عن الخيول الرخيصة و«الكديش» العادي[2] الَّذي يستعمله الجنود.

ثمن الخيل

ويملك الضباط الإنجليز وخاصَّة الأمراء الهنود الأغنياء عدداً

(1) سمحت الحكومة منذ سنة 1899م بالتصدير مقابل رسوم قدرها خمسة جنيهات.

(2) تربَّى خيول مهجَّنة جديدة على الساحل العربي للخليج العربي كما هي الحال في سوريا، وتُسمَّى هذه الخيول في الهند الخيول العربية الخليجية، وتُباع بأثمان جيدة وتشبه الخيول الفارسية.

كبيراً من الخيول الأصيلة الثمينة، ويتم النقل عن طريق البحر من البصرة إلى بومباي[1].

يختلف ثمن الخيول اختلافاً كبيراً خاصَّة بالنسبة للخيول الأصيلة، ذلك أنَّ الثمن قد ينخفض جداً بسبب مظاهر بسيطة نظراً لمعتقدات البدو ـ كما ذكرنا سابقاً ـ فقد يحدث ذلك مثلاً بسبب اللون أو بعض المناقص البسيطة رغم أنَّها لا تؤثر على صلاحية الخيول للاستعمال، في حين أنَّ صُدَفاً أُخرى كاللون الفاتح للشفة العليا مع لون داكن لبقية الرأس قد تتسبَّب في ارتفاع كبير للثمن، ولا يوجد في أوروبا مقياس لتقويم الخيول الأصيلة، ويذكر بوركهاردت فرساً ثمنها ثمان مائة جنيه وهو مبلغ مرتفع جداً بالنسبة لذلك العهد، وتتحدَّث الأساطير إلى اليوم عن أفراس لا يبيعها أهلها حتَّى بألف جنيه، وليس غريباً على كلِّ حال أن تُدفع مائتان أو ثلاثمائة أو حتَّى خمسمائة جنيه لفرس من السلالات الخمس، أمَّا تحت مائة جنيه فمن المرجَّح ألا يحصل المرء على أي من هذه الخيول حتَّى في بغداد المعروفة بالأسعار المنخفضة، ويمكن على عكس ذلك الحصول على حصان أصيل بداية من خمسين جنيهاً، ويمكن مقابل مبلغ مائة جنيه الحصول على بعض الخيول الجيدة حقاً، ويحدد ثمن «الكديش» حسب صلاحيته للاستعمال وحسب عمره وشكله؛ فيبلغ ثمن حصان

---

(1) قارن الفصل 8، ص306، ج2، من البحر المتوسط إلى الخليج.

متوسط صالح للنقل أربعة جنيهات تقريباً في سوق دمشق، ويبلغ سعر حصان صالح للركوب من عشر جنيهات إلى عشرين جنيهاً، كذلك يمكن الحصول على هجين مقبول بداية من عشرين جنيهاً ولا يزيد سعره إلاّ نادراً على خمسين أو ستين جنيهاً[1]، وتفضّل الإناث من بين فئة «الكديش» بسبب هدوئها الكبير في السير وقلّة جموحها، وهي صفات تؤخذ بعين الاعتبار عند تقويم الخيل.

وكثيراً ما يبيع البدو الخيول فيما بينهم بطريقة المناصفة حيث تنتقل الفرس إلى ملكية المشتري في حين يعود المهر الأوّل الّذي تلده إلى البائع، وتوجد طرق عديدة أُخرى للبيع، ولا يسجل البيع أبداً كتابة بل يتم الاتفاق شفاهياً فحسب، ولكن دائماً بحضور شهود لتجنب الخلافات، ولا شك أنَّ طريقة المناصفة تجعل عملية البيع صعبة، ذلك أنّه من النادر أن يتم الاتفاق بين الأطراف المعنية. ويعتبر من المستحيل في الصحراء إخفاء مناقص الحيوانات أو ادّعاء نسب غير صحيح[2] لها.

(1) قارن الجزء الأوّل من البحر المتوسط إلى الخليج، الفصل 2، ص65.

(2) يتم تسجيل النسب كتابة كما هي الحال بالنسبة للخيول الأوروبية، أمّا في الفترة الأخيرة فقد أصبح البدو ـ وخاصّة التجار والوسطاء ـ أقل دقة في هذا الموضوع بسبب زيادة إقبال الأوروبيين على شراء الخيول.

نسب الخيل
أصل الخيل الإنجليزية الكريمة

يمكن القول أكثر ممَّا تقدَّم: فعندما يستولي البدو أثناء معركة على خيول لقبيلة أخرى فإنَّهم يبعثون رسولاً إلى القبيلة المهزومة ليستفسر عن نسب الخيول المسلوبة، ولا يمتنع أحد أبداً في مثل هذه المناسبات عن الإدلاء بالمعلومات المطلوبة، أمَّا الرَّسول نفسه فيتمتَّع بحصانة مضمونة، وعندما يتم الاستيلاء على حصان من قبيلة أُخرى، ويرجع بطريق العنف إلى مالكه الأوَّل فإنَّ هذا الحصان أو ما يولد له إذا كانت فرساً يرجع دون مقابل إلى المالك الأوَّل الَّذي تعرَّض للسلب، ويحصل كل شخص يخبر المالك الأوَّل برجوع دابته إلى القبيلة على ناقة أو عدَّة شياه حسب عادة القبيلة، وينبغي على المالك أن يقدِّم هذه الهدية وإن كان المبشِّر هو اللص الأوَّل نفسه!

وليس من عادات البدو خصي أحصنتهم أبداً، إلاَّ أنَّه يمكن العثور على الحصان المخصي «طواشي» في المدن السورية، هنا تنتهي كثير من الخيول ـ خاصَّة في مدينة دمشق ـ مشدودة أمام عربات النقل السيِّئة الَّتي يتزايد عددها بلا هوادة[1].

(1) من الغريب أنَّ القوات المسلحة في دمشق تستعمل جزئياً خيولاً يتم جلبها من المجر.

ومن المعروف أنَّ أصل الخيول الإنجليزية الكريمة كافة يرجع إلى ثلاثة جياد عربية نقلت إلى إنجلترا في القرن الثامن عشر وهي بـايـرلـي تـرك Byenly Turk ، ودارلـي أرابـيـن Darley Arabian ، وجودولفين بارب Godolphin Barb ، وقد اشترى يعقوب الأوَّل منذ سنة 1616م من تاجر يُدعى «مرخم» حصاناً عربياً بمبلغ مائة وأربعة وخمسين جنيهاً ، غير أنَّ هذا الحصان لم يكن ذا قيمة متميزة علاوة على أنَّه مشكوك في أصله العربي ، وليست أصالة بايرلي ترك وجودولفين بارب هي الأُخرى خالية تماماً من الشُّبهات ، إلاَّ أنَّ دارلي أرابين من السلالات الخمس بلا ريب ، وقد كان هذا الحصان من سلالة «معنقي» ، وقد أرسله توماس دارلي ـ وهو مندوب للمؤسسة التجارية الإنجليزية في حلب ـ سنة 1705م إلى أخيه السيِّد بروستر دارلي الَّذي يحمل لقب «فارس ألدبي بارك» ويقيم عند مدينة يورك[1] ، وقد نشأت في هذا القرن في عدَّة بلدان أوروبية إسطبلات حكومية وخاصَّة للخيول العربية ، إلاَّ أنَّها كانت تهدف بالدرجة الأُولى إلى التهجين مع خيول عربية أصيلة[2] .

---

(1) قارن تويدي في المرجع المذكور ، ص 381 وص 561، صور دارلي أرابين في المجلة الرياضية، ديسمبر 1882م، وفي كتاب صور لخيول السباق المشهورة، عند تـ .هـ. تانتن، م. أ. 1887م، الجزء الأوَّل، ص 1.

(2) يملك السيِّد ويلفريد بلانت واللايدي آن بلانت إسطبلاً بالقرب من لندن ـ في كرابيت بارك، ثري بردجز ستايشن ـ يهتم بتربية الخيول العربية الأصيلة وحدها .

بناءً على ما توصَّلت إليه معلوماتي حتَّى الآن يبدو لي مؤكداً أنَّه لا يمكن مقارنة الخيول الأوروبية أبداً بالخيول العربية فيما يتعلق بالصبر والجلد لو كانت العناية بها قليلة وعلفها سيِّئاً بالدرجة المعتادة عند البدو[1]، لكنَّها في مقابل ذلك تصلح أكثر من الخيول العربية لأغراض أُخرى غير الركوب.

الصفات العامَّة للبدو

مثلما يفتخر البدوي بأصالة سلالة حصانه، كذلك وأكثر منه يفتخر بأنَّه هو نفسه عربي أصيل على عكس العرب الحضريين الَّذين اختلطت دماؤهم بدماء جنسيات أُخرى، ويفتخر بانتسابه إلى القبيلة الَّتي ولد فيها وبمآثر آبائه أيضاً.

الصليب

ويستطيع كل بدوي أن يتتبع نسبه إلى عهود غابرة[2]، وحيث

---

(1) تبيَّن في حلبات السباق المصرية أنَّ الخيول الإنجليزية الأصيلة الَّتي تربَّى منذ أجيال لغرض السباق هي أفضل من آبائها الخيول العربية الأصيلة، وتنظم سباقات عامَّة للخيل على الطريقة الأوروبية في القاهرة والإسكندرية وفي بيروت أيضاً.

(2) ليس للبدو عائلات مثل ما هو معهود عند الخضر، بل يحملون اسماً شخصياً قد يضاف إليه «ابن فلان» للتمييز بين الأشخاص، أمَّا عائلات الشيوخ فقد تتخذ أحياناً اسم أحد الأجداد المشهورين لقباً للعائلة كما هي الحال بالنسبة لابن رشيد وابن سعود، إضافة إلى ذلك تنتشر الكنية بكثرة عند البدو.

إنَّ البدوي ينظر بازدراء شديد إلى «الصليبي»[1] الَّذي يرتدي جلود الغزلان ويمثل عجر الصحراء، فذلك دليل متميز على يقين البدوي بأنَّ هذه القبيلة ليست من أصل عربي[2]، ويردِّد المغنّون المتنقلون

---

(1) قارن الجزء الأوَّل من البحر المتوسط إلى الخليج، الفصل السادس، ص220 و221.

(2) نادراً ما تسمع من العرب الجنوبيين أنَّ الصليب ينحدرون من أصل بدوي ـ قارن دافتي في المرجع المذكور المجلد الأوَّل، ص283. ويقول بوركهاردت في المرجع المذكور، ص11: إنَّهم قبيلة عربية شمالية، ويبدو أنَّ هذا الرأي ليس له أساس بعد الَّذي عرفناه إلى الآن عن الصليب ـ قارن باقي ملاحظات دافتي في المرجع المذكور المجلد الأوَّل، ص280 وما تبعها في مجلة المنتدى الجغرافي الملكي، لندن 1865م المجلد 35، ص189 وما تبعها، هوبر ـ يوميات رحلة في البلاد العربية، ص193 وما تبعها وص588، ويعقوب في المرجع المذكور ص114، 115، ويقول بيلّي: إنَّ الصليب نسل من قبيلة الصابئة الَّذين يعتبرون حرَّان مدينة مقدَّسة بشكل خاص، ثمَّ يعطي بيلي رأياً آخر يقول فيه: إنَّ جدّ الصليب عربي عاشر والدته وأنجب منه ابناً، قارن المرجع المذكور، ص190، 191، وتشير علامة الصليب الَّتي تلعب دوراً في حياة هذه القبيلة على ما يبدو ـ قارن بيلي في المرجع المذكور، ص189، وفي مجلة الأجناس المجلد التاسع، ص15، وتجانسها مع اسم قبيلة صليب، تشير إلى أنَّ نسب الصليب يرجع إلى شعب ربَّما كان مسيحياً في السابق، ويهمّنا فيما يتعلق بعلم الأجناس العمل الَّذي تقوم به هذه الفئة والَّذي يتمثل ـ إلى جانب الصيد الَّذي يمارسونه بإقبال شديد ـ في أنَّهم يكسبون معيشتهم عن طريق مهاراتهم في تصليح المراجل، وأداء بعض أعمال الحدادة الأُخرى، قارن المثال على ذلك عند دافتي في المرجع المذكور، المجلد الأوَّل ص280/281، ونلاحظ أنَّه لا يجوز الخلط بين الصليب والهتيم الَّذين هم الغجر الأصليون (؟)، وينتشر هؤلاء الهتيم بين مختلف القبائل،

في الصحراء الأهازيج الَّتي تمجِّد أعمال وخصال الآباء خاصة منها الشجاعة والجود وكرم الضيافة، ويحصلون مقابل ذلك على قطعة من النقود أو الملابس، أو حتَّى على ناقة من الشيخ العربي الَّذي يمدحونه.

مظهر البدو

في كل مخيم كبير عدد من المغنِّين الَّذين يعرضون فنونهم في المناسبات المتميزة ويعرفون كثيراً من أغاني البطولة والغرام، إلاَّ أنَّ الأشعار الَّتي يرتجلونها تتحدَّث في غالب الأحيان عن المعارك والغزوات، وعن مزايا خيول وإبل القبيلة.

وقفة البدوي معتدلة جيدة، وحركاته هادئة وقورة تنمُّ عن

ويقومون لها ببعض أعمال الحدادة، ويدفعون الجزية، ويشاركون عند الضرورة في الحروب، أمَّا في الحجاز ـ على ساحل البحر الأحمر ـ فيشتغلون في صيد السمك واللؤلؤ. تنتشر في داخل الجزيرة العربية قبيلتي الشرارات وابن سمري، وتقيم قبيلة الشرارات حالياً في المنطقة بين وادي سرحان وكرك في اتجاه الجنوب، ويُقال: إنَّهم يملكون أحسن وأسرع الإبل في البلاد العربية، وهم فيما عدا ذلك فقراء ولا يملكون خيلاً، ويخشى النَّاس من غزوات قبيلة الشرارات، وعدد هذه القبيلة كبير، ولذلك يعيشون في كنف قبيلتهم، ويدفع جزء منهم الجزية لابن الرشيد، في حين يخضع الجزء الآخر للسلطة التركية، وتقيم قبيلة ابن سمري جنوب الشرارات في تيمة ودرب الحج، وهي قبيلة كبيرة العدد أيضاً وتدفع الجزية لابن رشيد.

نجد من الهتيم الَّذين يقيمون في مصر فرعاً جنوب حلوان يُدعى الحسار ويتمتع بعيش رغيد، ونجد إضافة إلى ذلك فرعاً من الهتيم في الزقازيق الدلتا وعددهم كبير، ويطلق عليهم اسم بني عطا.

الارتياح ما دام غير منفعل، الأمر الَّذي يحدث بسرعة شديدة، وقليلاً ما تتجاوز قامة البدوي طولاً وسطاً، والبدوي في العادة أهيف الجسم رقيق الأطراف، أمَّا عضلاته فهي ضعيفة النمو خاصَّة عند الأطراف، وأمَّا وجهه فهو في العادة نحيف نحيل، ولونه بنّي يميل إلى الإصفرار، يزداد بياضاً في الشتاء ويصبح داكناً في الصيف، وتقع العيون اللوزية الداكنة على خطوط منحرفة تظللها حواجب كثيفة، وتظل العيون في العادة نصف مغمضة بسبب ضوء الشَّمس الساطع، أمَّا نظرة البدوي فهي حادَّة، وقوَّة نظره رائعة تثير عجب الرحالة في كثير من الأحيان، رغم أن قِصَر النظر ظاهرة غير نادرة، ثمَّ يتميز البدوي بحدَّة السمع ولا غرابة في ذلك، لأنَّ الصمت الرهيب في الصحراء لا يؤثر سلبياً على حاسة السمع، وشكل رأس البدوي حادّ وجبينه مرتفع، وأنفه معقوف على هيئة منقار الصقر ومقطعه دقيق، إلاَّ أنَّه يصبح مع تقدُّم السن، وتحت تأثير الشَّمس وأحوال الطقس في بعض الأحيان مشابهاً لأنف مدمن الخمر في بلادنا، وشفاه البدوي رقيقة دقيقة في العادة وأذناه صغيرتان، أمَّا يداه وقدماه فتتميز برشاقة ملفتة للنظر، وتكاد أسنانه تكون ناصعة البياض دائماً، وفي حالة صحية جيدة.

المظهر واللباس

أمَّا لحية البدوي فهي قليلة الكثافة ونادراً ما يكون الشارب على وجه التخصيص مكتمل النمو، وتكون اللحية في العادة كاملة

حادة الشكل على الهيئة الإسبانية القديمة، أمَّا شعر الجسم ـ خاصة على الصدر ـ فكثيراً ما يكون كثيفاً بشكل عجيب، وقد يحدث أحياناً ـ خاصة عند القبائل المعروفة باللصوصية كقبيلة الغياث ـ أن يترك البدوي شعر الرأس مهملاً متدلياً في جدائل سائبة دون استعمال كفّية، إلاَّ أنَّ تغطية الرأس تعدّ علامة من علامات الاحترام عند البدو، وكثيراً ما يحلق البدوي شعره في أعلى الرأس ويبقيه متدلِّياً على جوانبها في جدائل وخصلات، وهذه عادة من العادات الشرقية الضاربة في القِدَم نجدها ممثلة على النحوت منذ عهد الحِثّيينَ، ويحلق الشيوخ والبدو الَّذين يهتمون بمظهرهم ورؤوسهم على عادة المسلمين المستقرين[1].

ويمكن القول بصفة عامة: إنَّ مظهر البدو لا يخلو من بعض الوقار، في حين يشبه مظهر رجال القبائل المعروفة اللصوصية الَّذين تتمثَّل حياتهم في صراع دائم للبقاء، مظهر الشعوب البدائية المتوحشة.

ملابس البدو بسيطة جداً في العادة، إذ يرتدي الرجل قميصاً

---

(1) يحلق البدو الرجل في المغرب الرأس ما عدا الجزء من الشعر الَّذي يرجون أن يقادوا منه إلى الجنَّة بعد موتهم، ويُقال: إنَّ المقاتلين في القسم الآسيوي من تركيا يحلقون رؤوسهم عند اندلاع الحرب، ولا يتركون إلاَّ جزءاً في أعلى الرأس للدلالة على تحدّيهم للموت، إذ يسهّلون على العدو أخذهم من هذه الجديلة، وقطع رؤوسهم في حال الهزيمة.

«ثوبه» مصنوعاً من نسيج قطني رخيص له أكمام واسعة، يتحوَّل لونه الأصلي الأبيض بمرور الزمن وكثرة الاستعمال إلى لون غير واضح بين الرمادي والبني، ولا يغسل البدي هذا القميص أو يغيره أبداً ولا يخلعه إلاّ عندما يستحمّ، الأمر الَّذي يحدث كلَّما سنحت الفرصة، وعثر على جدول أو بئر أو أيّ حفرة تحتوي على الماء، ويشدّ هذا القميص بحزام يصنع من القطن الملون يعوض عند الفقراء بحبل عادي، ويلبس الأثرياء فوق القميص ما يُسمَّى «زبون» وهو رداء رقيق طويل يبلغ الكاحل ويشبه في شكله القفطان، ويصنع من الصوف الملون أو الحرير[1] ويفضّل منه ما يحمل أشكالاً ونقوشاً في اللون الأحمر، وأكمام هذا الرداء طويلة جداً في العادة، يشمِّرها صاحبها عند اللباس ويشدُّ الحزام فوق هذا الرداء ـ وليس فوق القميص ـ حتَّى يستطيع تثبيته، حيث إنَّ الأزرار لا توجد إلاّ في الجزء العلوي منه، ويرتدي البدوي في الشتاء لباساً قصيراً على هيئة السترة يصنع من الكتَّان ويُسمَّى «اللبَادة»، أو يصنع من نسيج القطن ويُدعى «خرقة». وتفضل الأنسجة ذات الألوان الزاهية في صنع هذا الأخير، حيث يختار الأعيان نسيج الصوف الناعم «الفانيل الأحمر» الَّذي يُسمَّى «حورانية»، ويلبس فوق ذلك كله الرداء الخارجي الَّذي يتساوى فيه بدو الصحراء كافَّة وهو «العباية» أو «العبا» الَّتي تتمثَّل في

(1) يقابل ذلك في دمشق ما يُسمَّى «قنباز».

معطف واسع مفتوح من الأمام مستطيل المقطع بحمل فتحات للأيدي، وتصنع العباية عادة من صوف الغنم أو وبر الإبل وقليلاً ما تكون من شعر الماعز أو من الحرير، ولون العباية أصفر بنّي أو بنّي يميل إلى السواد، أمَّا في شمال البلاد العربية فتكون عادة مخططة عمودياً في شرط مختلفة العرض أو تكون بنيَّة اللون، وقليلاً ما تكون الشرط أفقية، ويبدو أنَّ العباءة السوداء اللون تسود في نجد وكذلك عند قبائل المنتفك عند أسفل الفرات.

أمَّا في المناطق المجاورة لبغداد فتفضّل العباءة ذات اللون البنّي الفاتح الموحّد على وجه التخصيص، ويحبّ كبار الشيوخ ارتداء عباءة ذات أشكال هندسية في لون الفضة أو الذهب في المناسبات الرسمية والاحتفالات، وتكون هذه الأشكال الهندسية على هيئة شرط تكوّن مثلثات موجَّهة إلى الأسفل تبتدىء عند الرقبة وتنتهي عند وسط الظهر، ويرتدي بعض البدو في فصل الشتاء جلداً بدائياً «الفروة» فوق العباءة، يصنع عن طريق خياطة مجموعة من جلود الغنم إلى بعضها بعضاً.

الكفّيَّة أو الجزيَّة هي غطاء الرأس عند العرب، وهي قطعة من القطن ـ أو الحرير عند الأعيان وحدَهم ـ تبلغ مساحتها قرابة متر مربع، تطوى في اتجاه القطر وتوضع على الرأس بحيث تتدلى زاويتان على جانبَي الرأس في حين تتدلى الزاوية الثالثة على الظهر، ويشدّ هذا الغطاء فوق الرأس بحبل مصنوع من شعر

الماعز «العقال» لونه أسود في الغالب ويتميز عادة بشدَّة متانته، ويضغط هذا الحبل على شكل دائرتين فوق الكفية، ويحمل البدو تحت الكفية في غالب الأحيان طاقية من اللباد أو القطن، وللكفية ألوان مختلفة كالأزرق والأحمر والأسود، وقد تكون ذات لون واحد أو مزخرفة باللون الأبيض، أمَّا إذا كانت من الحرير فيغلب عليها اللون الأصفر، وأمَّا الكفية ذات الجودة المتميزة فتكون قائمة اللون مطرزة بالذهب أو الفضة، وتكثر الكفية الزرقاء أو الحمراء مع العقال الأبيض في جنوب بلاد ما بين النهرين[1].

وليس للجزء الأسفل من الجسم لباس خاص عند البدو بخلاف ما عليه الحال عند جميع الشعوب من الجنسيات المختلفة المستقرة في الشرق، وأمَّا فيما يتعلق بلباس الأقدام إذا توافر عند البدو[2] ـ وعلى كلِّ حال عند الأعيان وحدَهم ـ فإنَّه يتمثَّل في شبشب أحمر، أو حذاء ذي رقبة يلبسه الفرسان عادة ويبلغ وسط بطة الساق، ويوشّي حافته العليا خيط من الحرير الأزرق يتدلَّى من الأمام على شكل أهداب.

(1) يلبس رجال ابن رشيد عقالاً ضخماً مع كفية ذات مربعات حمراء وبيضاء كما نعرفها عند قبيلة المنتفك.

(2) يلبس البدو في نجد والحجاز وجنوب البلاد العربية الصندل المصنوع بطريقة فنية ويُسمَّى «نعل» وله أشكال مختلفة، أمَّا البدو المصريون فيلبسون الصندل البسيط دون أي تحسينات فنية.

يحمل كل من الحذاء والشبشب قطعة أمامية على شكل الخرطوم منحنية قليلاً إلى الأعلى تماماً على هيئة ما نجده في أقدم الآثار في شمال سوريا وآسيا الصغرى، مثلاً في آثار زنجرلي، وليس للحذاء كعب بل تحمل أحذية الفرسان عوضاً عن ذلك أجزاء معقوفة مثبّتة في قطع مستديرة من الحديد تستعمل في الوقت نفسه كمهماز، ويتمثّل لباس المرأة أساساً في رداء واسع على شكل القميص لونه أزرق في الغالب ويُسمَّى «ثوب جز» يُشدّ بحزام يلف عدَّة مرَّات حول الخصر، تلبس المرأة فوق ذلك في العادة مختلف الثياب بما فيها ملابس الرجال، وتلفُّ المرأة رأسها بما يُسمَّى «عصابة» [عصبة] تكون دائماً سوداء اللون ولماعة في كثير من الأحيان من أثر الأوساخ أو الدسم، وخلافاً لنساء المدن لا تلبس المرأة البدوية الخمار أبداً، ثمَّ إنَّها تمشي في العادة حافية وقليلاً ما تلبس حذاء غليظاً أحمر أو أصفر اللون، ويتمثل حليها في أساور لليد، وخلخال للرِجل تكون عادة من الزجاج الأزرق أو الأخضر «معدد» عند المرأة العادية، ومن الفضة أو حتَّى من الذهب «سوار، أسوارة» عند نساء الأعيان، ويُسمَّى حلي القدم «حجال» للصغيرة منها أو «خزام»، أمَّا نساء الشيوخ ذوي الثروات الطائلة فيحملن معلقات في الأنف تُسمَّى «عران» تثبت في الجانب الأيمن أو الأيسر من الأنف.

الأمر الَّذي يجلب الانتباه عند النِّساء هو الوشم الَّذي يكون خاصَّة على الخد والجبين والذقن والشفاه، ويكون على اليدين والذراع والأقدام أيضاً، وهو في لون أزرق أو ضارب إلى الأخضر، وبصفة عامَّة فإنَّ عادة الوشم منتشرة في الشرق سواء عند المسلمين أو المسيحيين، رغم أنَّ الجيل الجديد بدأ يخجل من هذا التشويه، ويكثر الوشم (الدقّ) عند نساء البدو على الذقن والجبين؛ فيُحاكي أحياناً خماراً يغطي كامل الوجه ولا يترك إلاَّ العينين والأنف.

وملابس الأطفال بسيطة جداً، إذ يعيش الذكور من الأطفال عراة حتَّى الخامسة أو السادسة من عمرهم، في حين تلبس البنات عادة قميصاً قصيراً، ونادراً ما تجدهن عراة تماماً، كذلك الأمر بالنسبة للكبار من النِّساء، إذ يندر أن تتعرى المرأة تماماً، أمَّا الرجل فقد يخلع جميع ملابسه عند عبور نهر مثلاً، في حين تظل المرأة دائماً مرتدية القميص الأزرق.

تتميَّز الحياة العائلية كما سبق أن ذكرنا بأهمية كبرى عند البدو، إذ عليها ينبني دستور القبيلة بكامله، والرجل هو سيِّد البيت والعائلة المطلق كما هي الحال في المشرق قاطبة، إلاَّ أنَّ ممارسة السيادة ألين بكثير ممَّا جرت عليه العادة في المدن، إذ يعتبر الوالد أبناءه أصدقاء له أكثر من اعتبارهم خدماً، فيأكلون معه في الوعاء

نفسه ويحصلون على الثناء والمديح في حضرته، ويختلف الأمر في المدن حيث لا يستطيع حتَّى الكبار من الأبناء الجلوس مع والدهم، أو مشاركته في الطعام إلاَّ بإذنه، وفي حين يعتبر سكان المدينة حتَّى الأبناء المتزوجين جزءاً من ممتلكات الوالد في البيت، وكثيراً ما يواصل هؤلاء الأبناء الإقامة في بيت الوالد حتَّى بعد الزواج، نجد أنَّ الشاب البدوي يسعى إلى الاستقلال بنفسه[1] وتأسيس بيت خاص به، الأمر الَّذي لا يصعب عليه نظراً لبساطة طبيعة الحياة البدوية، ذلك أنَّ الحصول على خيمة أسهل من الحصول على منزل، ثمَّ إنَّه يستطيع الحصول على حاجته في الحياة الخاصَّة من الحيوانات الَّتي تلعب دور النقود السائلة عن طريق النهب الَّذي يتعوَّد عليه البدوي منذ نعومة أظفاره، إلاَّ أنَّ الأبناء لا يبتعدون عن والدهم عند مغادرة منزل الوالدين، إذ يواصلون الحياة بالقرب منه ويضربون خيامهم إلى جانب خيمته ويتبعونه في جميع القضايا المهمَّة.

دور المرأة وأعمالها

يختلف دور المرأة البدوية تماماً عن دور المرأة في المدينة؛ إذ تستشار في غالب الأحيان حتَّى في أهم القضايا رغم أنَّه لا يسمح لها بدخول منطقة الرِّجال في الخيمة وفقاً للعادات الشرقية

---

(1) فارن فلشتيت ـ رحلات في البلاد العربية، المجلد الأوَّل، ص110 وما تبعها.

القديمة، ولا يزال الدور الَّذي لعبته إحدى زوجات الشيخ صفوق والدة عبد الكريم وعبد الرزاق وفارس في تاريخ شمر معروفاً إلى اليوم في صحراء بلاد ما بين النهرين[1] وكذلك والدة ذبلان الَّتي استطاعت توجيه ابنها بطريقة حاسمة وقدَّمت لي بذلك خدمة جليلة[2].

ويشتد احترام الرجل البدوي للمرأة بصفة متميزة عندما تنجب هذه ولداً، ويتبيَّن مفهوم الأُمومة بوضوح عندما نعرف أنَّ الزوج وجميع أفراد العائلة يتخلّون عن تسمية المرأة باسمها حالما تنجب ولداً وينادونها من ثمَّ فصاعداً باستعمال اسم المولود الجديد فتصبح «أم فلان»، خاصة إذا كانت المرأة زوجة لأحد الشيوخ[3]، وحتَّى العدو الَّذي يشن غزوة على القبيلة يواجه المرأة باحترام كبير، إذ يعتبر البدوي أنَّ من واجبه أن يتخلى عن بعض الحيوانات المسلوبة لفائدة المرأة الَّتي تلاحقه إذا كانت من القبيلة الَّتي تعرَّضت للغزو، وقد سبق أن شرحنا دور المرأة في موضوع طلب الحماية.

ولا يتضارب مع هذا الاحترام البالغ أن يكون على المرأة البدوية واجب القيام بجميع الأعمال المنزلية وما يتعلق بذلك من

---

(1) قارن ج2، فصل 2، ص57 من البحر المتوسط إلى الخليج.
(2) قارن الجزء الأوَّل فصل 6، ص240 من البحر المتوسط إلى الخليج.
(3) هذه الظاهرة معروفة أيضاً في المدن ولكن غالباً عند عامَّة النَّاس وحدهم.

مهام مختلفة، ومن أشقّ الأعمال الَّتي ينبغي على المرأة البدوية أن تقوم بها جلب الماء، والبحث عن الحطب الَّذي قد لا تعثر عليه في بعض الأحيان إلاَّ في أماكن تبعد مسافة ساعات عن المنزل، كما ينبغي على المرأة أن تحلب الإبل والماعز[1] وأن تصنع الزبدة من اللبن، وتقوم المرأة بهذا العمل الأخير عادة في الصباح فتضع اللبن في قربة تعلقها على حاملة ذات ثلاث أرجل وتدفعها جِيئةً وذهاباً في إيقاع متجانس حتَّى تتكوَّن الزبدة، الأمر الَّذي يستغرق قرابة ساعتين من الزمن، ومن واجب المرأة إعداد الطعام، رغم أنَّ الرجال يتولون هذه المهمَّة أحياناً، وتبدأ المرأة قبل مطلع الفجر بطحن الدقيق اللازم لوجبات اليوم، وهي مهمة تستغرق عدَّة ساعات بسبب قصور الرحى اليدوية عن أداء هذا العمل بسرعة أكبر، ولا تزال الرحى تحتفظ بشكلها الَّذي كانت عليه منذ عهد الآشوريين والمصريين القدماء.

تتكوَّن الرحى كما هي الحال في معظم أجزاء البلاد الإسلامية من قطعتين مستديرتين من الحجر الصلب، القطعة العليا مقببة قليلاً يتوسطها وتد يشكل المحور الَّذي تدور حوله الرحى، وتوضع الحبوب في ثقبة الوتد وفي الوقت نفسه تدار الرحى لطحن الحبوب بين قطعتَي الحجر، ويكون الطحين المصنوع بهذه الطريقة

(1) يحلب الراعي أو المالك الإبل عادة بنفسه عند الرجوع إلى الحي في المساء.

خشناً بطبيعة الحال، أمَّا القمح المستعمل في إحضار الطبق اليومي للبدو وهو البرغل فيدقّ في مهراس حجري أو معدني[1].

وتشمل أعمال المرأة صناعة النسيج الَّذي تستمد منه قِطَع الخيمة والأقمشة الخشنة الَّتي تصنع منها الأكياس والأغطية وفي بعض الأحيان القمصان أيضاً، وتنصب المرأة جهاز النسج «النول» الَّذي يكون في العادة بدائياً في وسط خدر النِّساء، ومن الغريب أنَّ الرِّجال يقومون بعملية النسيج في كثير من الأحيان، ويغلب على الظن أنَّ السبب في ذلك هو معالجة الضجر الَّذي قد يصيبهم أحياناً[2]، ويتبيَّن بوضوح حبّ الرجل لذاته أمام الجنس الضعيف أثناء الترحال، فإذا كان البدوي يملك ناقة فإنَّها يركبها في حين تسير النِّساء خلفه محمَّلة بمختلف الأدوات المنزلية أو ببعض أبنائها فوق ظهرها.

تعدد الزوجات والحب

إنَّ تعدد الزوجات ظاهرة غير غريبة عند البدو رغم أنَّه لا يمارسها في الأساس إلاَّ الشيوخ، ويعتبر الزواج من الناحية القانونية عملية شراء، فللحصول على المرأة يتم الاتفاق على ثمن حسب ثروة الوالد والعريس، الأمر الَّذي يجعله يختلف اختلافاً

---

(1) قارن الفصل 3، ص57، ج2، من البحر المتوسط إلى الخليج.
(2) نجد الرِّجال يشتغلون على النول في قرى سوريا ومصر أيضاً.

كبيراً من حال إلى أُخرى، إذ يدفع الشيوخ الكبار قطعاناً كاملة من الإبل وعدداً كبيراً من العبيد، في حين يقدّر الثمن في العادة ببضعة من الإبل، إلاّ أنَّ عملية الزواج هذه لا تتم في البادية بالطريقة الجافة الَّتي تتم بها في المدن، حيث لا ترى العروس في العادة عريسَها إلاّ في ليلة الزفاف، ذلك أنَّ البدو يراعون كل المراعاة ميول الفتاة الَّتي لا تمنع من مخالطة خاطِب ودِّها، ويروي البدو كثيراً من قصص الحب والحرمان الَّتي يحاول فيها الرجل استمالة قلب محبوبته المُعرِضة عنه بالقيام بأعمال بطولية متميزة، وبصفة عامَّة تلعب الأغنية العاطفية دوراً هاماً في أشعار العرب، وعلى وجه التخصيص حبّ البدوي الأصيل للبدوية الأصيلة، وحتَّى في المدن، حيث أصبحت العلاقة بين الجنسين مختلفة تماماً بسبب إقامة المرأة داخل البيت، فإنَّ الأغاني المفضلة هي الَّتي تقصُّ حكايات الحب والسعادة والحرمان عند البدو، والفارس البدوي الَّذي يتقلَّد سيفه أبدَ الدَّهر ويملك من القوَّة ما يسمح له بالثأر لأي خطر قد يهدِّد شرف عائلته.

الزواج والغَيرة، الطلاق

رغم الحريات الَّتي يسمح بها البَدَويّ للمرأة ـ على خلاف عرب المدن ـ فهو ميال إلى الغيرة مع أدنى سبب للشك، الأمر الَّذي يقود في كثير من الأحيان إلى عواقب وخيمة نظراً لحدة طبع البدوي وسرعة غضبه، وقد اضطررت إلى تضميد جراح رجل في

مخيم الشيخ فارس كان ابن عم له قد غار منه لا لسبب إلاَّ لأنَّه تحدَّث مع زوجته، فهوى بسيفه على ذراعه فهشَّمها تهشيماً، وكان قد أوشك على قتله لو لم يندفع بعض الأقارب لإنقاذه من الهلاك.

وتتزوَّج الفتاة منذ نعوفة أظفارها ـ في كثير من الأحيان بدايةَ الثانية عشرة من عمرها ـ ورغم مواصلة النمو لاحقاً فإنَّ الأُنثى تبلغ في هذا السن نضجاً كاملاً، فحياة المرأة البدوية تشبه حياة نباتات البيوت المكيفة فتصبح أُمَّاً في الثالثة عشرة من عمرها وعجوزاً في الثامنة عشرة، والسبب في هذه الشيخوخة المبكرة هو الزواج المبكّر والولادة الكثيرة، والحياة القاسية مع التغذية السيِّئة وغير الكافية، هذا إضافة إلى رضاعة الأبناء الَّتي تستغرق سنتين أو ثلاث سنوات على الأقل، وينبغي الملاحظة أنَّ التشريع الإسلامي يقضي ألا يكون الفطام قبل انتهاء عامين من الولادة، لكن البدو لا يلتزمون بالتشريع الإسلامي فينبغي أن تعتبر أنَّ هذه الظاهرة ترجع إلى عادة ضاربة في القِدَم رسَّخها الإسلام لاحقاً، وتكاد المرأة البدوية تتقلص بانتظام مع تقدمها في السن، في حين تميل المرأة الحضرية إلى عكس ذلك تماماً بسبب قلَّة الحركة بلا ريب[1].

يُطلِّق الزوج زوجته في أغلب الأحيان إذا كانت عاقراً، وبصفة عامَّة فإنَّ ظاهرة الطلاق منتشرة عند البدو، ويكفي للبدوي

---

(1) رأيت بعيني في المغرب صبياً يبلغ طوله طول أُمّه يأخذ ثديها للرضاعة.

كما هي الحال عند المسلمين كافَّة أن يلفظ صيغة الطلاق ثلاثاً، إلاَّ أنَّ الطلاق لا يمثل بالنسبة للمرأة أي مساس بشرفها، حيث إنَّها تستطيع أن تتزوَّج من جديد بعد انقضاء العدَّة الَّتي تستغرق أربعين يوماً حسب ما يشرعه القرآن.

وتتعرَّض المرأة في كثير من الأحيان إلى معاملة سيِّئة من طرف زوجها، إلاَّ أنَّ الاعتداء الخشن يراقب عن طريق مؤسسة متميزة هي الوصي؛ إذ يجوز لكل امرأة أن تختار رجلاً من القبيلة يتولَّى مهمة الذود عنها ضد أي اعتداء من طرف زوجها، أمَّا إذا أرادت المرأة الطلاق فإنَّها تهرب إلى خيمة أبيها أو أقاربها[1]، عندئذٍ لا يستطيع زوجها أن يُرجعها إلاَّ بالحسنى، ولا يجوز له ذلك أبداً عن طريق الإكراه[2]، غير أنَّه يستطيع في مثل هذه الحال أن يمتنع عن لفظ عبارة الطلاق ثلاثاً بحيث لا يمكن للمرأة أن تتزوج غيره، وإذا أصرَّ الرجل على الرفض رغم محاولة استمالته عن طريق هدية قد تتمثل في عدد من الإبل؛ فإنَّ ذلك يعني حكماً بالعزوبية الدائمة على المرأة، ويبدو أنَّ مثل هذه الحالات تحدث بكثرة[3].

---

(1) كانت المرأة في الجاهلية تحصل على الطلاق بمجرَّد أن تعكس اتجاه خيمتها، قارن يعقوب في المرجع المذكور، ص212.

(2) دافتي ـ في المرجع المذكور، ص232.

(3) قارن بوركهاردت ـ في المرجع المذكور، ص90.

كثرة الأبناء، الختان

يرجع السبب في كثرة الأطفال عند البدو إلى تعدد الزوجات، وحق الرجل في الزواج من امرأة أُخرى إذا كانت الأُولى عاقراً، فقد كان لفرحان شيخ شمر الراحل على سبيل المثال سبعة عشر ولداً على قيد الحياة عند زيارتي لديارهم، وتتجلى هذه الطاقة الجبَّارة على الإنجاب عند البدو خاصة في زمن السلم، ولعلَّها أهم عوامل الهجرات الكثيرة الَّتي حدثت في شبه الجزيرة العربية عبر العصور دون أن تتسبب على الإطلاق في خلوّها من السكان، إلاَّ أنَّ ظروف المعيشة السيِّئة والصراع المتواصل تحدّ من النمو الهائل للسكان، ثمَّ إنَّ هذه الأسباب نفسها تجعل معظم البدو قصيرة، وعلى كلِّ حال فإنَّ خلو المخيمات من المسنِّين يجلب الانتباه بصفة متميزة[1].

لا تمثل الولادة عند البدو حدثاً متميزاً في الحياة اليومية، إذ يبدو أنَّها تتم بطريقة في غاية السهولة، ولا يؤثر ذلك مطلقاً على الأشغال العادية للمرأة البدوية، أمَّا ختان الصبيان فيتمُّ في جو احتفالي سمحت لي الفرصة بحضوره في مخيم شمر، وشاهدت بعض الفتيات البدويات اللاتي لا يخلون من لمسات بديعة من الجمال يؤدين بهذه المناسبة رقصة عجيبة، فقد كنَّ يتحركن ثلاثاً

(1) قارن روشر ـ أسس الاقتصاد القومي، الطبعة العشرون، ص692، ونصوص الاستشهاد في الهامش 3.

إلى الأمام في خطوات موزونة على أنغام الأهازيج الصاخبة، ويحنين الصدور في اهتزاز متواصل، وفي الوقت نفسه يقمن بحركات متموّجة على هيئة جركة الحيَّة بينما تقابلهنَّ راقصة رابعة منفردة تقوم بالحركات الاهتزازية الموزونة نفسها.

تربية الأطفال

لقد بقي المرح الَّذي عَمَّ المخيم في حدود اللياقة ولم يتجاوزها بأية حال، ووزعت بالمناسبة على الحاضرين في الحفل آلات صغيرة للصَّلصلة، وألواح من الصفيح ونايات حازت جميعها على كثير من الإعجاب، إلاَّ أنَّ الفرحة الجماعية أصيبت للأسف بنكسة مفاجئة بسبب تجمع أمام قرية كردية على مقربة من المخيم، وقد كان ذلك بسبب ضبط نفر من شمر أثناء قيامهم بعملية سرقة فهرع عدد من أفراد القبيلة لنجدتهم، حيث إنَّ القرية كلها كانت خاضعة لنفوذ البدو فقد كان الأكراد سعداء لمجرَّد استرجاع ما سرق منهم.

لا تكلّف المرحلة الأُولى من تربية الأطفال البدو مشقة كبيرة، حيث يتركونهم لشأنهم، فيترعرعون على غرار الشعوب البدائية، ذلك أنَّ أية رعاية يوليها الآباء لأبنائهم ـ مهما كانت بسيطة ـ تتسبب حتماً في هلاك الضعاف من بينهم، ويسمح البدو للصبيان بحرّيات لا تتماشى مع مفاهيمنا التربوية، إذ يرحّب البدوي مثلاً

بظاهرة الوقاحة عند أبنائه، ويعتبرها علامة تبشّر بالرجولة والاستقلالية، ويقتصر توجيه الشاب فيما عدا ذلك على تهيئته لأعمال اللصوصية والقتال، وقد لاحظت في مخيم الشمر أنَّهم يتركون الأواني نصف الفارغة بعد الانتهاء من الأكل للأطفال فيفرض القوي اللبق سلطته على الضعيف، وإذا بلغ الصبي قدراً من القوَّة يسمح له بركوب الخيل دون مساعدة ينبغي عليه عندئذٍ أن يتمرَّص على ألعاب الفروسية، ويبدأ في حمل واستعمال رمحه منذ الحادية أو الثانية عشرة من عمره، وقد كان كبير أبناء الشيخ فارس يشارك في الغزوات منذ أن كان صبياً في الرابعة عشرة من عمره.

موارد العيش عند البدو

تمثل الغزوات والحروب أوج حياة البدوي الَّتي تنقضي فيما عدا ذلك على نمط فيه كثير من الضجر والملل، إذ يقضي البدوي الأصيل، البدوي الحر الطليق، جُلَّ يومه دون القيام بأي نشاط، ولا يزيد عمله على تقديم العلف لحصانه، أو ركوبه فترة قصيرة للسماح له بشيء من الحركة، ويقضي الرِّجال في المخيمات الكبرى كامل اليوم في خيمة الشيخ دون القيام بأي عمل، وتدور الأحاديث في العادة حول الخيل والغزو، أمَّا إذا نزل ضيف فتلك فرصة مستحبَّة لتغيير الجوّ، عندئذٍ يأتي عدد كبير من الفضوليين المتطفلين إلى خيمة صاحب الضيافة لسماع أخبار جديدة أو للمشاركة في تناول القهوة والتبغ.

مستوى معيشة البدوي بسيط في متوسطه، ويتمثل الغذاء الأساسي في البرغل، وهو طحين من القمح أو الذرة يطبخ في الغالب على البخار، ويسقى في المناسبات المتميزة بسمن من شحم الخرفان أو بلبن حامض[1] يخلطه المضيف ـ أو شخص آخر يكلف بهذه المهمة ـ بيده اليمنى على شرف الضيوف، ويوضع اللحم والشحم على البرغل المكوَّم على هيئة الهرم بعدما يقطَّع أو يمزَّق إلى أجزاء صغيرة كما هي العادة عند الدروز والفلاحين.

ماكولات البدو

يحب البدو أكل لحم الخرفان والإبل خاصة إذا كانت حيوانات صغيرة السن، غير أنَّهم لا يستطيعون التمتع بذلك كثيراً، وفي المناسبات المتميزة تقدّم الذبائح كاملة دون تقطيعها إلى أجزاء، ويمزّقها الضيوف بأيديهم بطبيعة الحال، ولا تستعمل الملعقة في الأكل إلاَّ نادراً، وبصفة عامَّة فإنَّ طريقة الأكل غير متحضِّرة قياساً بمفاهيمنا نحن، إذ يشمِّر البدوي كمّ ذراعه اليمنى إلى أقصاه ويشعر بمتعة متميزة وهو يتلذَّذ بتقاطر السمن من اليد الَّتي تهيّىء اللقمة لتدفع بها إلى الفم، ويأكل البدوي بسرعة بالغة ويتلمَّظ أثناء ذلك محدثاً أصواتاً كثيرة، ثمَّ يحتفظ بما تبقَّى من الأكل ليسخّن لاحقاً ويقدّم إلى الضيوف، ويقدم البدو عوضاً عن

---

(1) قارن بورتر ـ في المرجع المذكور، ص185 ـ 190.

البرغل[1] الرز أيضاً الَّذي يعتبرونه طبقاً جيداً[2]، وفيما عدا ذلك يأكل البدوي كل ما يعثر عليه في الصحراء وتستطيع معدته هضمه، وهي معدة جيدة الأداء بلا ريب، فيأكل مثلاً الفأر واليربوع والجراذين وخاصة منها الضب الكبير[3] والجراد وعدد كبير من الجذور والنباتات ويحبّ البدو خاصة فاكهة البطيخ الَّتي يستهلكون منها كميات هائلة.

تمثل التمور غذاء أساسياً في مناطق النخيل الَّتي لا تشمل

---

(1) في المغرب يقدّم الكسكسي عوضاً عن البرغل، والكسكسي هو طبق مصنوع من حبوب الهرسة أو القمح المطحونة طحناً متوسطاً، يتم طبخه على بخار ماء يغلي، ويطبخ فيه لحم الخروف، ويمثل طبق الرز التقليدي نهاية وتتويجاً لأي وليمة مهما كانت فخامتها حتَّى في المدن التركية والمصرية، حيث نجد تنويعاً كبيراً في الأكل بفضل تطور فن الطبخ، أمّا الأكراد فيقدّمون الأطباق المختلفة بتداول اللحم والرز والبرغل واللبن الحامض والفواكه، خاصة منها البطيخ، حيث يقدّمونها في صحاف صغيرة توضع مثنى وثُلاثاً إلى جانب بعضها في صفوف طويلة على الأرض، ويجلس الضيوف القرفصاء متقابلين على سجادتين ضيقتين متقابلتين، قارن لاحقاً الفصل 4، ص148.

(2) الطعام السائد في نجد والمنطقة الجنوبية هو بالدرجة الأولى الرز «طمن» الَّذي يجلب من بلاد ما بين النهرين، وللرز أسماء مختلفة، للأنواع المختلفة كما هي الحال بالنسبة للتمور.

(3) يوجد صنفان من جراذين الصحراء قد يبلغ كلاهما متراً من الطول، ويحسبهم بعض الرحالة تماسيح، أحدهما الجرذون ذو الذنب الشوكي ويُسمَّى «الضب» وهو حيوان من آكلات الأعشاب - والآخر «ورل الصحراء» الَّذي يتغذَّى بثدييات صغيرة، وبيض الطيور والحشرات، ولا يعتبره البدو صالحاً للأكل.

شمال بلاد ما بين النهرين وسوريا، لكن الخبز لا يوجد في جميع المناسبات، ويحضّرهُ البدو على شكل أقراص عريضة كبيرة قليلة السَمك كالأوراق على طبق يُسمَّى صاج[1] وهو صفيحة معدنية منبسطة، أمّا أثناء الترحال عندما يكونون معرَّضين للخطر، فقد يحضّر البدو الخبز أيضاً على ظهور الإبل أثناء السير، فيضعون طبقة مشتعلة من روث الإبل فوق الصاج، ويبسطون أوراق العجين فوق ذلك، ثمَّ يغطونها بطبقة أخرى من الروث المشتعل[2].

يحتل حليب الإبل والماعز مكانة أساسية في التغذية[3] عند البدو، ولا يربّى البقر والجاموس إلاَّ عند القبائل الَّتي أصبحت شبه مستقرة على نهر الفرات وروافده، ويحبّ البدو حليب الحيوانات حبّاً جمّاً، إلاَّ أنَّه لا يتوفر بكميات كبيرة إلاَّ في فصل الربيع، ويشرب البدو اللبن طازجاً أو حامضاً، وتعتبر الشنينة مشروباً محبباً خاصة في فصل الحرّ وهي نوع شديد الحموضة من اللبن، ممدد بكثير من الماء[4]، وممَّا يجلب الانتباه أنَّ البدو لا

---

(1) قارن بوركهاردت ـ في المرجع المذكور، ص95.

(2) هناك طريقة أخرى لإحضار الخبز تتمثل في عجن الطحين في إناء بإضافة شيء من الماء، ثمَّ وضع العجين على الرمل الجاف، وضغطه على شكل كعكة مستديرة، ويوضع هذا الرغيف بين طبقتين من الرماد المشتعل حتَّى ينضج، ويُسمَّى هذا النوع من الخبز «القرص».

(3) قارن يعقوب، في المرجع المذكور، ص95.

(4) تعني كلمة «شنينة» اللبن المخيض أيضاً، أمَّا الحليب الحامض فيُسمَّى لبناً، هذه الكلمة تعني في مصر «الحليب الحلو» الَّذي يُسمَّى عند العرب في كل مكان حليباً.

يعرفون كيف يصنعون الجبن من الحليب[1]، ولا يحبّ شمر الصيد، ولذلك لا يقدّمون لحوم الحيوانات المصطادة إلاّ نادراً على موائدهم[2].

الأمراض

ويتمتع البدوي في العادة بصحة أفضل من صحة الشعوب المستقرة بسبب حياته البسيطة ووجوده الدائم في الهواء الطلق، ثمَّ إنَّه يتميَّز عنهم بالحذر، إذ يلفُّ نفسه لفّاً تاماً في عباءته أثناء الترحال لتفادي الإصابة بالبرودة وأمراض العيون، ويتصرف بطريقة حكيمة أثناء اشتداد الحرارة إذا تعرَّض جسمه إلى عناء شديد، أمَّا إذا أصيب البدوي بمرض، فإنَّه غالباً ما يحتار في علاجه، ولا شك أنَّه يعرف بطبيعة الحال عدداً من الأعشاب المفيدة في الصحراء، إلاَّ أنَّه يعتمد أكثر من ذلك على العلاج المستعمل في جميع الأغراض، والمتمثل في ابتلاع قطع من

---

(1) يصنع البدو في نجد نوعاً من مصبّرات الحليب، فيبخرون اللبن ويحصلون بذلك على قطع كثيفة، وتحك هذه القطع عند الاستعمال وتحل في الماء قدر الإمكان ويُسمَّى المشروب والمادة المصبرة «مريسة» و«بقل» ويتزوَّد البدو من هذه المصبّرات بكثرة أثناء الغزو، قارن دافتي في المرجع المذكور، ص588. قارن فامبيري ـ الشعب التركي، ص208 وما تبعها، حيث يصف مادة غذائية مشابهة للعيران، «اللبن» المكثف الذي يطلق عليه اسم «كوروت» عند البدو الأتراك.

(2) يصبِّر بدو «الصليب» الحيوانات الّتي يصطادونها باستعمال الملح والتجفيف مدة عدَّة أيَّام، ويُسمَّى هذا اللحم المجفف «جله».

الورق تكتب عليها عبارات سحرية غامضة أو آيات من القرآن، وينتشر كذلك استعمال الحديد الساخن «الكيّ» ضد مختلف أنواع المرض والسقم، ويستعمل في جميع أجزاء وأعضاء الجسم، فيكوي البدوي الرأس مثلاً ضد الحمى الَّتي تنجم عن الانخفاض السريع لدرجة الحرارة في اللَّيل من ناحية، وعن قرب المخيمات من الأراضي المستنقعية، أو الَّتي تحتوي على المياه من ناحية أُخرى، أمَّا أنا فقد كنت أستفيد عند الحاجة من الأقراص القابلة للانحلال والَّتي يعتبر البدو تفاعلها مع الماء ضرباً من السحر، ويترك البدوي الجراح غالباً لشأنها، وحتَّى الإصابات الخطيرة تشفى بسهولة بالغة على غرار ما هو معروف عند الشعوب البدائية كافة، وتأتي أمراض المعدة وسوء الهضم بسبب سوء التغذية وطول الصوم، وبسبب القناعة في الأكل إذا سمحت الفرصة بذلك، ومن المضرّ عند البدوي أكله الخبز ساخناً حال تناوله من فوق النَّار، ولا يملك البدو علاجاً ضد هذه الأمراض غير المواد المسهّلة للخروج الَّتي تحتوي عليها بعض الأعشاب الصحراوية[1]، أمَّا أمراض العيون الَّتي لا تنتشر عند البدو كما تنتشر عند الشعوب المستقرة، فتعالج باستعمال الإثمد الَّذي يبدو أنَّ له مفعولاً مهدئاً على الالتهابات.

---

(1) قارن الملحق النباتي في ـ نهاية ج2 من كتاب من البحر المتوسط إلى الخليج.

الموت والدفن

عندما يموت البدوي تنتحب النِّساء في خيمته، وفي الخيام المجاورة لها بأصوات عالية حادَّة تُسمَّى «الولولة» كما هي عادةً الشرق كافة في مثل هذه المناسبات[1]. ويتم دفن الميت يوموفاته نفسه بالملابس الَّتي عليه حين موته دون أي طقوس خاصة، ويقوم بذلك في العادة رجلان، ولكن عند وفاة شيخ من الشيوخ يطلق عيار ناري مرَّة أو عدَّة مرَّات. أمَّا الغسل الَّذي تنصُّ عليه الديانة فلا يتم إلاَّ نادراً، ويتمثل القبر في حفرة بسيطة لا يمكن أن تكون عميقة بسبب عدم وجود المعدات المناسبة. ويغطي البدو القبر بالحجارة لحمايته من الوحوش. وأحياناً تثبت أعواد من الخشب تحمل خرقاً من الثياب بين الأحجار. وليس هناك علامة أُخرى لتمييز القبر، بعكس ما عليه الحال عند سكان المدن والفلاحين الَّذين من عاداتهم وضع أنصاب تذكارية صغيرة للموتى.

وبقدر ما يكون البدوي حصيفاً وواقعياً بقدر ما تقوده نزعة شاعرية في اختياره للمكان الَّذي يدفن فيه، فطبقاً لعادة ضاربة في القِدَم سبق ذكرها في الإنجيل[2]، يرفض البدوي أن يدفن في أرض منبسطة، فضلاً عن المنخفضات والوديان، وإنَّما يريد أن يدفن على ربوة مرتفعة إذا تيسَّر، أو على قمة جبل شامخ، حيث إنَّه يأمل أن

---

(1) قارن فيما يلي فصل 7، ص273.

(2) قارن فتزشتاين ـ يوميات رحالة، ص26 وما يليها.

يتمكن من مشاهدة أهل قبيلته عندما يحطون رحالهم بالقرب من مثواه، أو ليزداد أهل قبيلته بأساً أثناء الغزو عندما يشاهدون ضريحه. وهكذا نجد قبور البدو هذه على أغلب النقاط المرتفعة في الصحراء. أمَّا المقابر الكبيرة فهي قليلة عند البدو، وفي أفضل الأحوال نجد عدَّة قبور متجمعة على كثبان ركامية قديمة.

مظاهر اللطف في طبائع البدو والتدين

طبع البدوي مزيج عجيب من خصائل رائعة وصفات دنيئة. وهو مثال بليغ على صدق المقولة بأنَّ الشعوب الأُخرى ـ على غرار الأزمنة الأُخرى ـ لا ينبغي الحكم عليها انطلاقاً من القيم الأخلاقية السائدة عند الشخص الَّذي يحكم عليها، وإنَّما ينبغي أن يكون ذلك بناءً على المعطيات المتعلقة بها في ذاتها. ورغم ذلك فإنَّ طبع البدوي تغلب عليه الصفات الإيجابية حسب مفاهيمنا. فما دام البدوي لا يتعرَّض إلى مسٍّ بشرفه، وما دام واجب الثأر لا يدفعه إلى التصرف بطريقة أُخرى، وما دام لا يعتقد أنَّه محقٌّ في ممارسة نفوذه، فهو مثال للمسألة والطيبة واللطف والترفق.

ويحب البدوي السماحة في معاملته لعدوه المهزوم إذا كان بدوياً أيضاً، ولكن يرتكب البدو في المقابل أعمالاً وحشية في كثير من الأحيان للثأر من الدروز واليزيديين، والشعوب غير البدوية بصفة عامَّة.

ومن القصص المميزة لمثل هذا التصرف ما حدث لعبد الكريم شيخ شمر مع جدعان عقيد قبيلة فدعان عنزة اللذين كانت تربطهما علاقة صداقة من باب الصُدَف، فقد وقعت ذات يوم مجموعة جدعان الصغيرة في يد عبد الكريم الَّذي استعد للهجوم عليهم، لكنَّه أرسل قبل ذلك إلى جدعان أحسن فرس يملكها حتَّى استطاع هذا الأخير النجاة بحياته فاراً على صهوة هذه الفرس.

من مزايا البدو أيضاً احترام حتَّى الملكية الَّذي يتضارب بصفة غريبة مع ميول البدو إلى النهب والسرقة، لكنَّه يزداد رسوخاً بأمثلة بليغة متعددة، فنجد أنَّ حق الملكية على المتاع الثابت أو المتحرك لا ينقضي بهجرة أو فقدان أو وفاة صاحبه، وعلى هذا المنوال استطاع الشيخ الصغير فارس وأُمّه العودة إلى نجد عند فرارهم من الأتراك باعتقاد راسخ في العثور على الآبار والواحات الَّتي غادرها أجدادهما قبل قرون عديدة، ودون خشية أن ينازعهما فيها أصحابها الجدد في ذلك العهد، وهم من قبيلة الشمر أيضاً، ويذكر لايارد[1] أنَّ بدوياً من قبيلة عنزة فرَّ ذات يوم لبعض الأسباب إلى الموصل، ودخل مسجداً تدرّس فيه علوم الدِّين وانصرف إلى حياة الزهد والتعبُّد، وبعد انقضاء سنين طويلة حطت قبيلته رحالها ذات يوم مُصادَفةً بالقرب من الموصل، وعلم شيخ القبيلة بوجود البدوي في ذلك المكان فأعاد إليه الإبل الَّتي ورثها البدوي عن

(1) نينوى وبابل، الطبعة الألمانية، ص444.

والده الَّذي كان قد توفِّي أثناء غياب الابن عن القبيلة، وكانت الإبل قد تكاثرت بشدَّة في غيابه، إلاَّ أنَّ جميع أفراد القبيلة وفَّروا لها كل أسباب الرعاية بصفتها مِلكاً لرجل متغيب من رجال القبيلة.

لا يتجاوز دور الدِّين في حياة بدو شمال البلاد العربية أن يكون دوراً ثانوياً، وأشد منهم تعلقاً بالدِّين بدو جنوب بلاد ما بين النهرين والبدو المستقرّون، ولا نجد عند البدو ذلك التطرُّف الَّذي يميز تمييزاً سلبياً شعوب شمال إفريقيا الَّتي دخلت في الإسلام، سواء أكانت مستقرة مترحلة، فحتَّى النَّبي محمَّد تذمُّر في مرَّات عديدة من تهاونهم في الدِّين[1]، وإذا كانوا قد انضموا إلى حملاته للفتح ونشر الدعوة فإنَّ ذلك لم يكن بسبب الورع بقدر ما كان بسبب الطمع في الغنام، أمَّا العرب المستقرون فهم بلا ريب أكثر تديناً من البدو بكثير.

تأثير الحركة الوهَّابيَّة

عندما حاول الوهَّابيون إنعاش التعاليم الإسلامية من جديد، وربَّما العودة بالبلاد العربية إلى المبادىء الإسلامية وفقاً لمفاهيمهم الجديدة، اضطر جزء من بدو سوريا وخاصة من قبيلة عنزة إلى

---

(1) قارن القرآن الكريم، السورة 48، إضافة إلى شبرنجر ـ حياة محمَّد ورسالته، المجلد الثالث، ص251 وما يليها.

الانضمام إليهم على مَضَضٍ، وقد سلَّطت الحكومة الوهابية أئمَّة، وحثتهم على الالتزام بالمظاهر الخارجية للدِّين خاصة منها أداء فريضة الصلاة، وما لبث البدو أن طردوا هؤلاء الأئمَّة بعد القضاء على النفوذ الوهابي في شمال وغرب البلاد العربية[1]، وينتمي بدو

---

(1) كانت الحركة الوهابية الَّتي نشأت داخل البلاد العربية في النصف الثاني من القرن الماضي حركة متزمنة، وكانت تهدف إلى إعادة الإسلام إلى بساطته الأصلية. وقد أدَّت الحركة إلى تأسيس دولة دينية يحكمها أمراء من عائلة ابن سعود المقيمة في الدرعية، وقد انضمت إليها قبائل عربية أخرى إمَّا غصباً أو طمعاً في الغنائم وقد عاث البدو فساداً في المدن الَّتي وقعت في أيديهم، فسقطت كربلاء والنجف ضحية لهم، وهدَّدوا دمشق وبغداد والبصرة أكثر من مرَّة في مطلع هذا القرن، ولم تتصدَّ لهم الحكومة التركية إلاَّ عندما استولوا على المدن المقدَّسة مكة والمدينة، فكلَّفت محمَّد علي حاكم مصر بطرد الوهابيين من الحجاز والقضاء على نفوذهم، وقد تحقق ذلك بعد صراع عنيف استغرق سنوات عديدة، وشارك فيه عدد من الضباط الأوروبيين خاصة الفرنسيين واندثرت خلاله الدرعية، وبدأ منذ ذلك العهد صعود الأمراء الحاليين لمنطقة نجد الَّذين هم من عائلة ابن رشيد الَّتي تنتمي إلى قبيلة شمر، والَّذين كانوا أتباعاً لعائلة ابن سعود الَّتي ولَّتهم على حايل، وقد قضى محمَّد بن رشيد، الَّذي توفي مؤخراً قضاء مبرماً على سلالة ابن سعود، ولا يزال بعض أفراد العائلة يعيشون اليوم مشرَّدين في الكويت، وقد ظل رجل واحد من عائلة ابن سعود يحظى بنوع من السلطة المدنية كشيخ على بعض الواحات في داخل البلاد العربية ويدفع الجزية لسادة نجد بطبيعة الحال، إلاَّ أنَّ الأفكار الوهابية المتزمِّنة لم تنقرض في وسط البلاد العربية، ونجد شبهاً كبيراً لها في تعاليم الطريقة السنوسية الَّتي تأسَّست في هذا القرن، والَّتي أصبح لها نفوذ عظيم في إفريقية الوسطى والشمالية، وبدأت نجد أنصاراً في مناطق أُخرى من العالم الإسلامي.

شمال البلاد العربية وسوريا وبلاد ما بين النهرين إلى المذهب السُنّي، في حين تنتمي قبائل جنوب بلاد ما بين النهرين غالباً إلى المذهب الشيعي[1]، ومن الفوارق العجيبة أنَّ قبيلة المنتفك شيعية في حين أنَّ عائلة الشيوخ الحاكمة العريقة سُنّية.

ونادراً ما ترى البدو يؤدّون الصلاة، لأنَّ أغلبهم لا يستطيعون ذلك، ولا يعرفون حتَّى قواعد الصلاة، ولقد أتيح لي أن أتابع موقفاً طريقاً عندما شاهدت الشيخ فارس ـ الَّذي يميل إلى الراحة والخمول ـ يحاول القيام بواجباته الدِّينيَّة أمامي في مباهاة واضحة دون أن يتمكَّن من ذلك إلاَّ بعناء كبير ومع ارتكاب أخطاء فادحة، إلاَّ أنَّه لم يتبعه في ذلك رجل واحد من بين مئات رجال شمر الَّذين كانوا في خيمته[2].

أداء الفرائض الدينية في مخيم شمر

إنَّ الشيخ فارساً نفسَه قطع صلاته عدَّة مرَّات للحديث في قضايا عادية تماماً، وتجدر الملاحظة أنَّ قطع الصلاة ليس ظاهرة نادرة حتَّى عند الشيعة المتطرفين[3]، ثمَّ إنَّه لا يوجد في المخيم

---

(1) قارن الجزء الثاني، الفصل 2، ص81 من البحر المتوسط إلى الخليج.

(2) بقي الالتزام بالواجبات الدينية وخاصة الصلاة قائماً حتَّى بعد انقراض الحركة الوهابية عند قبائل البدو في نجد، وفي أجزاء أُخرى من البلاد العربية حيث أسَّست التعاليم الوهابية قاعدة صلبة.

(3) قارن بروجشَ ـ رحلة في بلاد فارس، المجلد الأوَّل، ص357.

أذان عند مواقيت الصلاة، ولا توجد فيه شخصيات دينية على الإطلاق، أمَّا الشخصان اللذان يطلق عليهما اسم «ملاًّ» ويرافقان الشيخ فارساً، فهما رجلان متعلمان يشغلان وظيفة الكاتب الخاص لدى الشيخ، أحدهما شمري أصيل متقدم في السن، والآخر غريب وهو شاب جيزي رافقنا في رحلتنا من الدير إلى المخيم الشيخ فارس، أمَّا المجموعات الدينية الَّتي يطلق عليها اسم «طريقة» فليس لها إلاَّ رواج قليل عند البدو، ولقد حاولت دون جدوى البحث عن أنصار الطريقة السنوسية الَّتي يذكر دوفيريي[1] أنَّها وجدت أنصاراً بين قبائل بدوية مختلفة خاصة بين شمر وفي الحجاز[2]، إلاَّ أنَّ التاريخ أثبت أنَّ البدو أصبح لهم ميل كبير إلى التدين والتصوف[3] عندما استقروا.

(1) دوفيريي ـ الجماعة الإسلامية لسيدي محمَّد بن علي السنوسي، وقد أخطأ أساساً في تحديده لمواقع قبائل البدو في بلاد ما بين النهرين على خريطته.
(2) يبدو أنَّ الحركة السنوسية قد سجلت في الحجاز واليمن نجاحاً ملحوظاً أيضاً بين البدو الرحَّل، خاصة عند بني حرب في الحجاز.
(3) قارن الجزء الأوَّل من البحر المتوسط إلى الخليج.

الفصل الثالث

من مخيم شمر إلى الموصل

مغادرة مخيم شمر، القرى الكردية ـ زيارة الشيخ عيسى كبير الأكراد ـ من قرادة إلى عابرة ـ عند تل جلاغا ـ تل رميلان بين سنجار ودجلة ـ هجوم ينتهي بسلام ـ في مخيم جحس.

غادرتُ مخيمَ شمر المضياف يوم الاثنين الرابع عشر من شهر أغسطس بعد إقامة استغرقت ثلاثة أيَّام، وكنت في اليوم السابق قد قدَّمت للشيخ فارس بعض الهدايا وَفقاً لما تقتضيه العادات، فكسوته من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وأعطيته كفّية وثوباً فاخراً ومعطفاً ثميناً، وحذاء فروسية من الجلد الأحمر، وبندقية، وقدَّمت لعدد من رجاله كفيات وأثواباً وغيرها، أمَّا الشيخ فارس فقد أهدانا مهراً «معنقي» قاده إلى خيمتي أحد رجال شمر الَّذي بدت عليه علامات هيبة الموقف، وحصل على قطعة من الذهب مقابل ذلك، وأجريت حديثاً طويلاً على انفراد مع فارس باشا في خيمته في آخر يوم من إقامتي، تطرَّقنا فيه إلى جميع المواضيع الَّتي تتعلق بشؤون البوادي وسياسة البدو، وطلب منِّي في نهاية الحديث

أن أرسل إليه دواء لعينيه المريضتين من الموصل، وقد وفيت بوعدي الَّذي وعدت، وكلَّف الشيخ فارس رجلين من أقاربه وعبدين زنجيين بمرافقتي في طريقي إلى الموصل، ورافقني التجار السوريون الثلاثة الَّذين انضموا إلينا في دير الزور.

مغادرة مخيم شمر، القرى الكردية

جاء مدير شدادة ومعه بعض أتباعه من الضابطية إلى مخيم الشيخ فارس واغتنموا الفرصة للسفر معنا إلى الموصل، هكذا استطعنا أن نكوّن فرقة من عشرين فارساً مسلَّحين جميعاً حتَّى نستطيع الدفاع عن أنفسنا من قطَّاع الطرق الأكراد، أو من غزوة صغيرة قد تقوم بها قبيلة عنزة.

أمَّا الضابط الطبيب الَّذي تم تكليفه بمرافقتنا في دير الزور والَّذي ذهب معنا هو ورجاله من الضابطية ودوابه حتَّى مخيم الشيخ فارس، فقد غادر مخيم شمر في الوقت نفسه الَّذي غادرنا فيه نحن، ليعود إلى مقرّ حاميته مع رجاله وبدو الجبور، وقد رافقهم كاتب الشيخ فارس لينهي مع المتصرف في الدير معاملات شيخ الشمر بعد أن اضطر إلى قطعها بسببي، وقدَّم لنا بعض رجال شيوخ طيء إبلاً لتحمل متاعنا أثناء سفرنا إلى الموصل وبدلاً من الجبور، وقد كان الرجال الجدد والدواب الجديدة أقل كفاءة وأصعب مراساً من الجبور وإبلهم.

غادرنا مخيم شمر في جو رائع ومثير، وقد أبى باشا البدو العجوز إلاَّ أن يشرِّفنا بمرافقته لنا ساعة كاملة مع أبنائه وجميع أقاربه وخدمه، وعندما انطلقت شمر من حولنا في معمعة فوضوية مضطربة، وراحوا يقومون بألعاب الفروسية في صخب وجَلَبة، تحرَّك الحنين إلى القتال في نفس الشيخ فارس مثلما تحرَّك في فرسه العجوز، وفجأة اندفع إلى وسط الجمع وراح يكرّ ويفرّ وكأنَّه في عنفوان الشباب، ثمَّ عاد هذا الشيخ الَّذي أصابه الثقل والخمول ليواصل سيره إلى جانبي، في حين راحت عيناه تتوقَّدان وهو يقصُّ عليَّ حكايات الغزوات الَّتي قام بها، ويتقبَّل منِّي الثناء على مهاراته هو وحصانه في ألعاب الفروسية.

افترقنا أخيراً عند قرية ساحة في الساعة العاشرة بعد كثير من الضمّ والتقبيل، وبعدما مررنا قبل ذلك بعشر دقائق بسوار، وكنَّا غادرنا المخيم الساعة التاسعة وكان اتجاهنا وما زال صوب الشرق والشمال الشرقي. في الساعة العاشرة والنصف بلغنا قريةَ القطبة الَّتي يسكنها الأكراد على غرار الأماكن الَّتي سبق ذكرها، وهنا وصلنا إلى سيل صبلاخ (صوبلاخ على خارطة هاوسكتشت) الَّذي يجري موازياً للجراحي ويصبّ في الردّ، والَّذي كان يحتوي على مياه رغم حرارة الفصل، وعبرنا جسراً خشبياً الساعة الحادية عشرة والنصف فوق نهر الجراحي الَّذي يحتوي بدوره مياهاً.

ثمَّ وصلنا إثر ذلك إلى قرية قرادة الَّتي تقع عند سفح التل على مقربة من الجدول، والَّتي يقيم فيها شيخ الأكراد المسيحي الشاب عيسى، الَّذي تعرفت إليه في خيمة الشيخ فارس ووعدته بالزيارة، وكانت قرادة أهم قرية شاهدناها أثناء مسيرة هذا اليوم، وكانت جميع القرى الَّتي مررنا بها حتَّى قرادة على غرار القرى الأُخرى الَّتي سنمرُّ بها في اليوم نفسه، تقع على قمة أو على جانب هضاب يبدو أنَّ سبب نشوئها هو اندثار قرى أُخرى كانت قائمة في موقعها. وبناءً على أقوال رجال الشيخ فارس تقع هضاب عديدة واسعة المساحة تغطي دون شك أنقاضاً من العهود الآشورية أو أقدم من ذلك ـ إذا اعتمدنا الوصف الَّذي بلغني عنها ـ تقع على مسافة تسعة أو عشرة كيلومترات جنوب قرادة بين الجراحي وسيل قطراني بناءً على الوصف الَّذي بلغني عنها، وتقع فوقها قرية ليلان الصغيرة العامرة بالسكان حالياً، ويقول البدو: إنَّ ليلان كانت في العصور الوسطى مدينة عربية ـ ربَّما مدينة أضرمة القديمة[1] ـ لا تزال بقايا أسوارها قائمة بناءً على أقوال مرافقي، وذكروا لي تلاً يقع على بعد سبعة كيلومترات ونصف جنوب ليلان ويُسمَّى تل غراسة، ويبدو أنَّه يحتوي على أنقاض هو الآخر.

يقيم الشيخ عيسى في منزل على هيئة القلعة، ويقع عند أعلى

(1) قارن ملاحظات دي غويه في نهاية هذا الفصل.

نقطة في القرية، وقد استقبلني بأدب يفوق بكثير ما تعوَّدناه عند الصبيان الَّذين هم في عمره، وما لبث معظم سكان قرادة أن تجمعوا في منزله، وكان مظهر جميع رجال القبيلة يدلُّ على أنَّهم مقاتلون، وكانوا رجالاً أقوياء البنية تظهر عليهم سمات الجنس الكردي، يدينون بديانة أهل الحكمة «نسطوريين»، ويتقن هؤلاء الأكراد المسيحيون استعمال السلاح على غرارِ أقاربهم المسلمين في القبيلة كما سبق أن أوضحنا، وقد قُدِّم لنا في منزل الشيخ عيسى الرزُ واللحم وحلويات مصنوعة من العسل والبيض وغير ذلك، ثمَّ غادرنا قرادة الساعة الواحدة والنصف في اتجاه الشرق مع انحراف بسيط في اتجاه الشمال، فمررنا الساعة الثانية عشرة بـ«تل طير» الَّذي يقوم تل روفل على مقربة منه في اتجاه الغرب، وكلاهما هضبة منعزلة عليها قرى صغيرة يقيم فيها بدو نصف مستقرين من قبيلة طيء.

من قرادة إلى عابرة

وصلنا الساعة الثانية والربع إلى قرية قبور البيض حيث التقينا من جديد بقافلتنا الَّتي انطلقت قبلنا وانتظرتنا قليلاً في هذا الموضع، وكان سكان هذه القرية من الأكراد وكانت هذه المرَّة الأولى الَّتي أجد فيها أكراداً يقيمون في السهول، وتوقفنا ساعة من الزمن عند الشيخ حسن شيخ القرية الَّذي طلب منَّا في أدب جمّ أن نمكث عنده بعض الوقت.

واصلنا الطريق في أرض أصبحت الآن سهلاً متجانساً، وبلغنا الساعة الرابعة وعشرين دقيقة قرية تل محيلة الَّذي كان على شمالنا، ويقيم فيها قوم من قبيلة طيء استقر جزء منهم منذ مدَّة وجيزة على بُعد كيلومترات قليلة في اتجاه الجنوب الغربي، وعبرنا الساعة الخامسة جدولاً خالياً من المياه يدعى سيل القطراني، ووجدنا الساعة الخامسة وخمس دقائق على يميننا قرية كردية تقع على تل رقيَّة على بعد خمسة كيلومترات تقريباً، ومررنا الخامسة وعشر دقائق وعلى الجانب الأيمن بهضبتين تسميان تلول الرمان، ومررنا الخامسة وخمس وعشرين دقيقة بالقرب من قرية أنشأها الأكراد على تل فارسوك، وقد فصل سيل عبَّاس الَّذي وجدنا فيه المياه هذه الهضبة الركامية الكبيرة عن مرتفع آخر يقع في الجنوب الشرقي، وكانت الأرض لا تزال مغطاة بصخور البازلت وذلك دليل على الأصل البركاني للهضبة، وتوجد عند سفح هذين التلَّين آثار عديدة واضحة لأزواج متوازية من الجدران، ووجدنا الخامسة وخمس وعشرين دقيقة على يميننا قرية وتل العطشانة، وعبرنا بعد ذلك بقليل المجرى الجاف لسيل العطشانة. في الساعة السادسة والربع شاهدنا على شمالنا وعلى مسافة كيلومترين تقريباً تلاً لا توجد فيه قرية يُسمَّى تليل قرديب. وفي الساعة السادسة والنصف شاهدنا على يميننا على بعد ستة كيلومترات تقريباً تل علو وهو تل متوسط الحجم، وعبرنا في الساعة السادسة وخمسين دقيقة مجرى

جدول جاف، ووصلنا الساعة السابعة والربع إلى هدفنا في هذا اليوم وهو القرية الكردية عابرة. تقوم المنازل في هذه القرية على السفح الجنوبي لهضبة كبيرة، ولكنَّها كانت خالية من السكان حيث نَصَبَ القوم خيامهم في السهل في هذا الفصل. وفي فصل الصيف يستبدل الأكراد والعرب ـ الَّذين أصبحوا مؤخراً مستقرين في غالب الأحيان ـ المنازلَ الثابتة بالخيام الأكواخ المصنوعة من الحصائر أو الحَلْفاء أو القصب أو الأغصان، والَّتي يُسمِّيها الأكراد باللغة التركية «يابله (مسكن صيفي)» أو «زومة» باللغة الكردية. لم تصل القافلة إلاَّ الساعة التاسعة والربع مساءً، وعندئذٍ نصبنا خيامنا إلى جانب خيمة الشيخ المضياف، الَّذي يحمل الاسم الكردي الأصيل حَمو[1]. وتجدر الإشارة إلى أنَّ قرية عابرة تدفع الخوَّة للشمر على غرار جميع القرى الَّتي سبق ذكرها.

عند تل جلاغا

تبعنا في صباح اليوم التالي الساعة الثامنة والنصف قافلتنا الَّتي كانت قد غادرت قبل ذلك بنصف ساعة في اتجاه الجنوب الشرقي، وتوجَّهنا في هذا اليوم إلى الجنوب الشرقي صوب قرية

(1) قارن زاخاو في المرجع المذكور، ص162.

قره جوك الواقعة غربيّ دجلة، وعلى مسافة بعيدة في اتجاه الشمال الشرقي وراء نهر دجلة ارتفعت كتلة جبل الجودي الّذي توقّفت عنده سفينة نوح بعد الطوفان حسب ما يرويه أهالي البلاد استناداً إلى ما ورد في القرآن ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ سورة هود: الآية 44، ووصلنا الساعة التاسعة والنصف بعد منعرج يتجه إلى الشمال إلى تل جلاغا[1] الواقع على شمال طريقنا، والّذي قد يكون موقع المدينة العربية القديمة باشزّة[2]، وتشمل القرية الواقعة على القمّة اثني عشر كوخاً تقريباً من الطين تكاد تكون متداعية جميعاً، وتشمل منزلاً أكبر حجماً يملكه الشيخ وكان نصف متداعٍ هو الآخر، وقد بدا لي أنَّ السكان لم يهجروا القرية إلاَّ منذ مدة وجيزة، وتقع على الجانب الشمالي للتل بعض الأكواخ الّتي كانت في حال أفضل من سابقتها، والّتي كانت تختلف في بنائها اختلافاً

---

(1) يذكر كثير من المؤلفين جلاغا، فيقول ريتر في المرجع المذكور المجلد 11، ص430 ـ 434 «جبل آغا» أو «جيرلا» أو تبل آغا» ويقول كبير ـ رحلة في آسيا الصغرى، أرمينيا وكردستان، لندن 1818م، ص447 «تشبلي آغا»، ويقول باكنغهام ـ رحلات في بلاد ما بين النهرين، لندن 1827م، المجلد 1، ص435 «شهيل آغا»، ويتحدّث مولتكه في المرجع المذكور، ص270 عن قرية «تيلاجا»، ويكتب كاميرون في المرجع المذكور، ص219 «تشيل آغالس»، قارن أيضاً أينزوورث في المرجع المذكور المجلد الثاني، ص120. أعتقد أنَّ سفح جبل طور عابدين كان يبعد مسافة ساعات عديدة عن جلاغا.

(2) قارن ما يقوله دي غويه في نهاية الفصل الرابع ج2، من البحر المتوسط إلى الخليج.

واضحاً عن الأخرى فقد كانت الأعمدة مرتبطة بالطين بحيث تشكل الجدران، أمَّا السقف فقد كان من التبن، وكانت رحىً حجرية لا تزال ملقاة على الأرض، وكان مبنى جديد مشيد من الأحجار السوداء يشير إلى مسجد بقي على شكله غير المكتمل.

غادرنا المكان الساعة التاسعة وخمسين دقيقة، وعبرنا بعد ذلك بخمس دقائق سيل خنيزير وهو فرع من فروع الردّ، ثمَّ عبرنا الساعة العاشرة وعشرين دقيقة وادي الرميلة الَّذي يتسع على الأقل في فصل الشتاء، وعبرنا الساعة العاشرة والنصف جدولاً آخر يصب في الخنيزير، وكانت الجداول الثلاثة تحتوي على المياه.

تل رميلان بين سنجار ودجلة

لا تزال نباتات الحَلْفاء والعشب تنمو على الضفاف الَّتي قد تغطيها الفيضانات في فصل الأمطار، وكان السهل ـ فيما عدا ذلك ـ تامَّ السواد بسبب حريق نشب في البراري، وقد بلغني أنَّ هذا الموقع تابع للمنطقة الزراعية الَّتي يملكها أكراد جلاغا، وقد التقينا عند سيل خنيزير ببعض رجال شمر الجنوبيين الَّذين كانوا في طريقهم إلى ديار الشيخ فارس لجلب الرجال الَّذين يريدون المشاركة في غزوة كبيرة سوف يشنّها شمر ضد عنزة، وصلنا بعد استراحة استغرقت نصف ساعة عند الحادثة عشرة والنصف إلى تل زنبيل والقرية الواقعة على شمالنا، وجاوزنا الساعة الحادية عشرة

وخمساً وثلاثين دقيقة جدولَ سيل زنبيل الَّذي يحتوي على المياه، وأبصرنا في الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة على مسافة ساعتين أو ثلاث تل قلعة الرميلة الَّذي يبدو أنَّه يغطي أنقاض قصر قديم، ولم نتمكن من مشاهدة تل قلعة الرميلة الَّذي يقع جنوبَ هذا التل وراء الردّ، وغير بعيد عن مصبّ الرميلة في الردّ، وتوجد فيه بعض الآبار، ومررنا عند الساعة الواحدة وخمس دقائق بتل رميلان الخالي من المياه والَّذي يصبّ هو الآخر في الردّ، وربَّما كان في هذا المكان موقع المدينة العربية القديمة برقعيد[1]، وكانت هذه الهضبة أهم مرتفع في البراري المحيطة، وكانت مغطاة بقبور للبدو، وكنَّا نستطيع من هذه الهضبة أن نشاهد بجلاء تام التلالَ العديدة الواقعة على السهل المحيط بنا، والَّتي ربَّما تشير إلى موقع قرى قديمة هنا أيضاً، وكان سنجار الطويل يتراءى لنا في الجنوب، وقره جوك في الشمال، وكانت النقطة الجنوبية لهذا الأخير تقع في اتجاه الشمال الشرقي منَّا، أمَّا النقطة الشرقية الأخيرة لسنجار فكانت تقع في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي منَّا، واصلنا طريقنا الساعة الواحدة والنصف من تل رميلان باتجاه الشمال الشرقي، وعبرنا في الثالثة وعشرين دقيقة سيل السويدية الَّذي يحتوي المياه، وهنا وجدنا ينابيع تتجمَّع في جدول تبعناه

(1) قارن تعليقات دي غويه في نهاية الفصل الرابع ج2، من البحر المتوسط إلى الخليج.

عدَّة دقائق عبر أرض تحيط بها هضاب ركامية، وهذا الجدول هو رافد من روافد رميلان، وتسلقنا في الثالثة وخمس وأربعين دقيقة من جديد هضبة منعزلة، وتوجَّهنا عندئذٍ صوب الطرف الجنوبي لقره جوك، وكلَّما اقتربنا من هذه السلسلة زاد عدد الهضاب في المكان.

كنَّا نعلم أنَّ المنطقة بين سلسلة جبال سنجار الَّتي تركناها الآن وراءنا ونهر دجلة الَّذي نتوجه إليه حالياً هي منطقة شديدة الخطر على المسافر المسالم، ذلك أنَّ سكان سلسلة جبال سنجار اليزيديين كانوا قد أعلنوا تمرُّدهم على الحكومة الَّتي كان البدو يقفون إلى جانبها هذه المرَّة.

هجوم ينتهي بسلام

سبق لنا أن سمعنا في ديار الشيخ فارس أنَّ هذه المنطقة الَّتي كنَّا نقطعها بالذات، هي مسرح لمعارك دامية بين البدو واليزيديين، وقد انطلقت جحافل من اليزيديين من جبال كردستان وعبرت نهر دجلة لمناصرة إخوانهم في الدِّين ضد القوات الحكومية في مرتفعات سنجار الغنية بالمياه وقطعان الماشية، وكان اليزيديُّون يشنُّون حملات غزو مستمرة ضد بدو بلاد ما بين النهرين انطلاقاً من سنجار.

واصلنا طريقنا الآن متَّخذين جميع إجراءات الحيطة والحذر،

فكانت القافلة تسير في الوسط وكنت أسير مع رجلين من شمر وبعض الرِّجال المسلحين الآخرين في المقدمة، والبقيَّة من حاملي البنادق في المؤخرة للحماية، وكان يبدو أنَّ الخطر الأكبر يهدِّدنا من الأمام، ذلك أنَّ الهدف المقبل لمسيرتنا كان مَعْبراً كثيرَ الاستعمال على نهر دجلة، وقد بلغنا أنَّ هذا المَعْبر بالذات يستعمله كثيراً اليزيديُّون القادمون من كردستان، وتقدَّمت القافلة قليلاً حيث إنَّني كنت آمل أن ألقاهم مع اليزيديين بصفتي أوروبياً في حال الاصطدام ولقائهم قبل أن يكشفوا ضعفَ الدفاع لقافلتي، ويستأنسوا إلى فكرة الهجوم عليها لأنَّها لقمة سائغة وصيد مريح. كانت قافلتنا الَّتي تحمل أمتعتنا قد اختفت عنَّا بسبب الأرض المتموِّجة الَّتي كنَّا نقطعها عندما فاجَأنا طلوعُ كوكبة من الفرسان من وراء أحد المرتفعات قرابة الساعة الرابعة، وكانت متوجِّهة رأساً إلينا، فاندفع الفارسان شمّريان المرافقان إليَّ فوراً للتصدي لِكوكبة الفرسان، إلاَّ أنَّهما ما لبثا أن وجدا نفسَيهما مطوّقين من جميع الجهات، أمَّا نحن بقية الفرسان فقد أطلقنا العنان لجيادنا لكي نلحق بزميلينا، وما كدنا نفعل حتَّى وجدنا أنفسنا مطوَّقين بما لا يقلُّ عن مائة وخمسين فارساً راحوا يحاوروننا برماحهم الطويلة في جلبة وصخب شديدين، وبدا أنَّ الموقف في منتهى الجِد، لكن لم يكن مهاجمونا لحسن الحظ من اليزيديين، وإنَّما من قبيلة جحيش الموالية للشمر، وبعد عناء شديد استطاع رفاقي بفضل

قدرتهم على الصراخ القوي أن يعرّفوا بأنفسهم كرجال للشيخ فارس، وبذلك هدأ الفرسان الَّذين كانوا يهدّدوننا برماحهم حتَّى علا الزبدُ أشداقَ بعضهم من شدَّة الحماس، وتبيَّن بعد ذلك أنَّ رجال جحيش كانوا قد أبصروا قافلتنا من مخيمهم الواقع عند المرتفعات المتقدمة من قره جوك لما كنَّا نحن عند تل رميلان وحسبوا أنَّنا يزيديون قادمون من سنجار عازمون على الغزو.

كان قد سبق لرجال جحيش أن اشتبكوا منذ أيَّام من عبَّاد الشيطان في معركة فاشلة وقع فيها عدد من رجالهم، ولذلك فإنَّهم اندفعوا على خيول غير مسرَّجة يكاد بعضهم يكونون عراة للتصدي للعدو والدفاع عن أهلهم وأبنائهم ومتاعهم، ولم يكن أحد من مهاجمينا لحسن الحظ يحمل سلاحاً نارياً، وإلاَّ لصعب الخروج من ذلك الموقف بدون سفك للدماء، أمَّا الآن وقد تبين لرجال جحيش خطؤهم فإنَّ فرحتهم لم تكن تقل عن فرحتنا، فقادونا من شدَّة سرورهم بذلك إلى ديارهم، ومتَّعونا طوال الطريق بضروب من ألعاب الفروسية.

في مخيم جحيش

كانت قبيلة جحيش قد ضربت خيامها عند ضفة سيل السويدية الَّذي كان يحمل مياه المرتفعات الجنوبية لقره جوك إلى نهر دجلة، وكان علينا ـ قبل الوصول إلى هناك ـ أن نعبر الجدول الَّذي كان

يشكل مستنقعاً منخفضاً حتَّى في هذا الفصل، وكانت الأرض مغطاة بنباتات كثيفة توفر مراعي طيِّبة لقطعان الماشية التابعة لقبيلة جحيش، وكان أصدقاؤنا الجدد قد وصلوا في صباح اليوم نفسه إلى هذا المكان قادمين من الجنوب الشرقي، وكانت خيامهم السوداء متناثرة على مسافات كبيرة طوال الجدول، وقد يبلغ البعد بينها ساعات من الزمن في بعض الأحيان، فنصبتُ خيمتي إلى جانب خيمة الشيخ علو الصالح، واستقبلنا النِّساء بزغاريد الفرح، وفي الحين ذبح المضيفون خروفين للاحتفاء باستضافتي إلى مأدبة عشاء.

كان الشيخ علو الصالح رجلاً في متوسط العمر، قصيراً كأنَّه قزم، إلاَّ أنَّه كان قوياً عريض الكتفين نشيطاً ولبِقاً، وكان له وجه معبّر تكتنفه لحية كثيفة، وكان جميع أفراد عائلته يتميزون بقامة قصيرة تلفت الانتباه، وكان يصعب عليَّ تمييزه كشيخ لقبيلة عريقة تنتمي إلى طيء لو لم يقدِّم إليَّ بهذه الصفة، فقد كانت ملابسه قليلة جداً عندما ركب للهجوم علينا، وبعد وصولنا إلى الديار لم يأخذ لنفسه الوقت ليستكملها، ولاحظت أنَّ بعضاً من خيول قبيلة جحيش كانت من الجياد الأصيلة المتميزة، وفي المساء خرج من قره جوك عدد من الخنازير البرية الَّتي كانت تسعى إلى مواردها المعتادة، لكنَّها وقفت مشدوهة عند مشاهدة الخيام، وما لبثت أن اختفت من جديد في سرعة فائقة، وكانت جميعها تنتمي إلى فصيلة

ضخمة قوية، ويبدو أنَّ في بلاد ما بين النهرين فصيلة أُخرى أصغر حجماً من هذه. انتبهنا بعد منتصف اللَّيل إلى إطلاق عيارات نارية، وفي الحين سارع جميع رجال القبيلة إلى أسلحتهم، وجيء لي أنا بحصاني الَّذي امتطيته وأنا ماسك بندقية في يدي، إلاَّ أنَّه ما لبث أن تبين أنَّه لا وجود لهجوم يزيدي هذه المرة أيضاً، ولكن حراس الماشية كانوا قد أطلقوا النَّار تحسّباً وإنذاراً لمن قد تراوده نفسه بغزوهم، ويبدو أنَّ الفهود ما زالت تعيش في قره جوك، أمَّا الأُسُود الَّتي لا تزال توجد بكثرة في هذه الربوع حتَّى هذا القرن، وليس في عهد الآشوريين ـ وحدَهم ـ الَّذين يصور لنا العديد من نحوتهم معاركها ـ فإنَّها قد اختفت تماماً من شمال بلاد ما بين النهرين، ولا يمكن العثور عليها إلاَّ بين الفينة والأُخرى في غابات بلاد بابل الأصلية.

كانت العباءة البيضاء الَّتي كنت أرتديها أنا ونجيب سلّوم من بين الأسباب الرئيسة لهجوم بني جحيش علينا، وكانت هذه العباءة رداء خفيفاً كنَّا نلبسه لوقاية أنفسنا من أشعة الشَّمس الرهيبة، وقد اعتقد كثير من بني جحيش لهذا السبب أنَّنا من اليزيديين، ذلك أنَّ البدو في هذه المناطق البرية لا يرتدون العباءة البيضاء، وعلى عكس ذلك يكره اليزيديون الألوان القاتمة، وخاصة منها الأزرق، ويحبّون الرداء الكردي الأبيض القصير على وجه التخصيص.



مسلط باشا مع عائلته ، شيخ مشايخ الجبور (1929م)

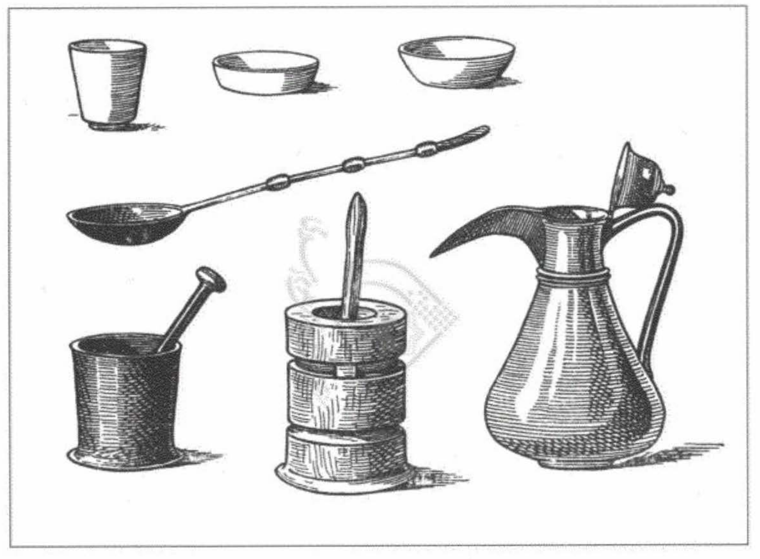
(تصوير أوبنهايم)

فرسان من البدو

(تصوير أوبنهايم)

نمرود «بريشة لايارد»

(تصوير أوبنهايم)



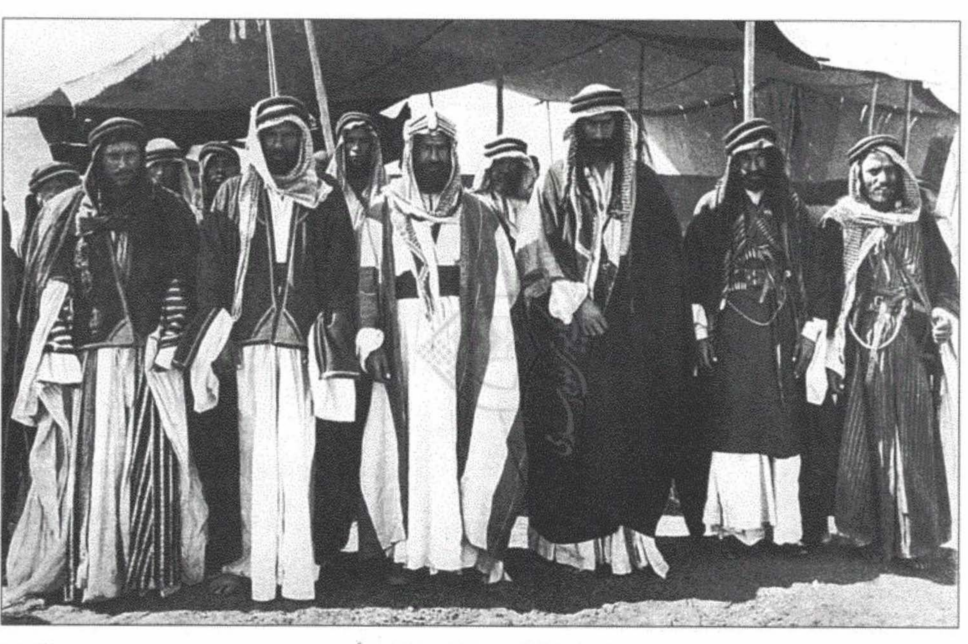
أدوات تحضير القهوة عند البدو



الشيخ عجيل الياور وولده أحمد (تصوير أوبنهايم)

الشيخ فارس مع أبنائه وخدمه

(تصوير أوبنهايم)

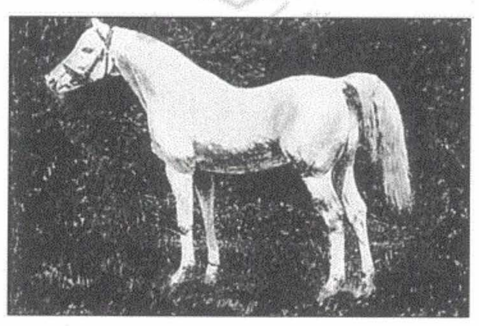


هجر أبو وتد (في الوسط) شيخ فداغة ـ شمّر

(تصوير أوبنهايم)

نساء بدويات

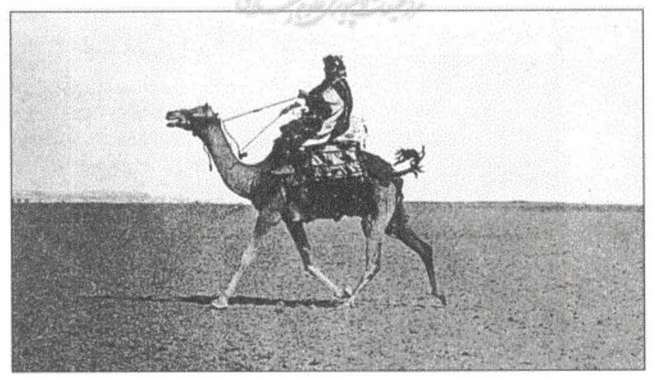
(تصوير أوبنهايم)



من الخيول الأصيلة التي يملكها السيد بلانت (تصوير أوبنهايم)

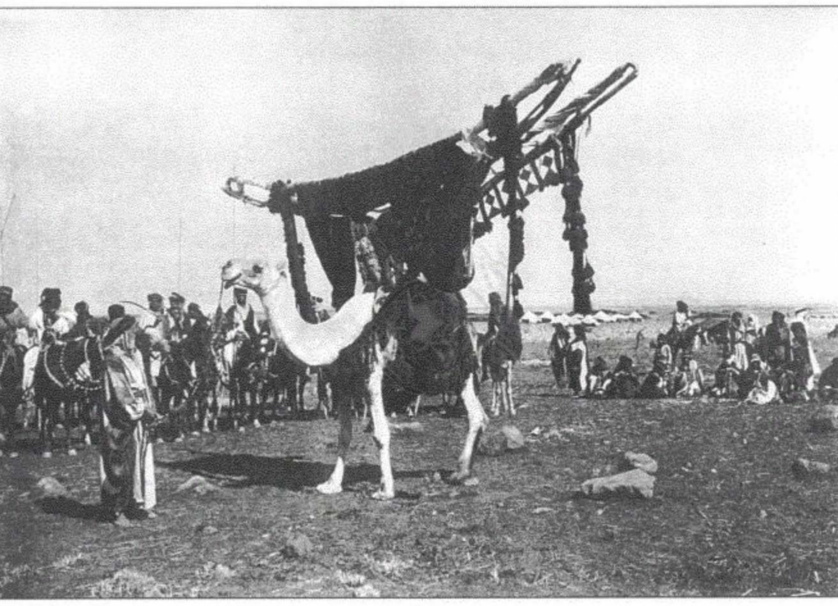
الفرس «نجمة» من بلاد نجد من سلالة «كحيلة العجوز» ويملكها القنصل الألماني في بغداد السيد ريشارتس

(تصوير أوبنهايم)



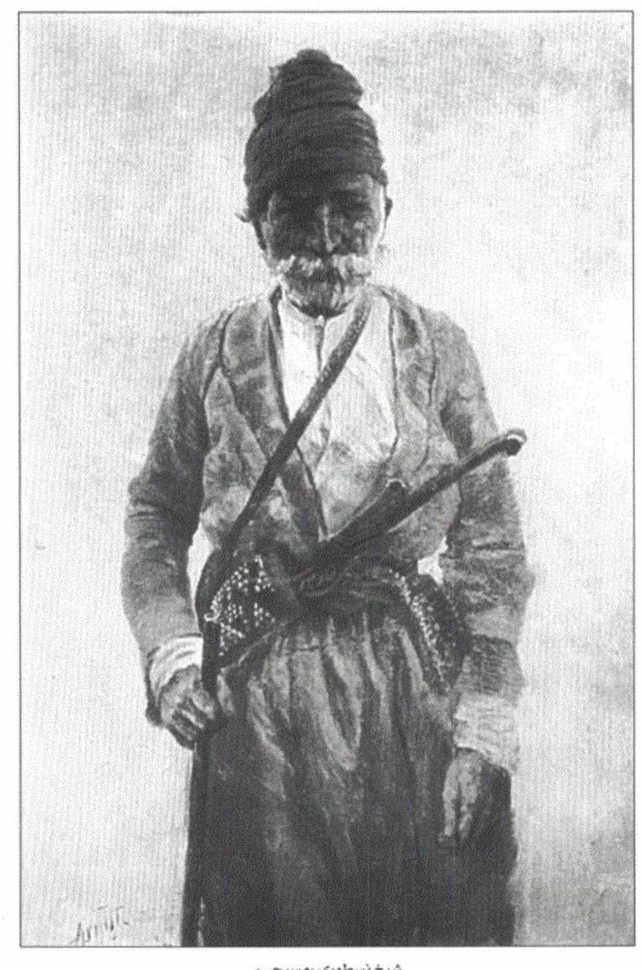
ركوب الابل

(تصوير أوبنهايم)



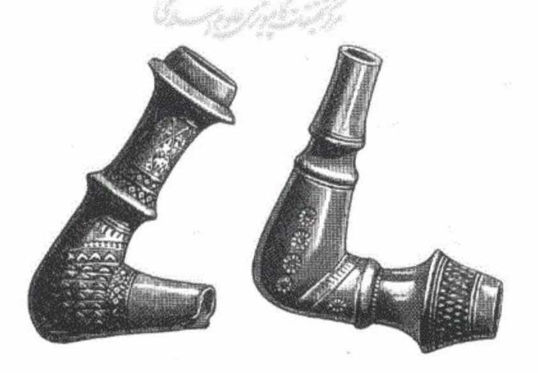
الهودج

(تصوير أوبنهايم)



شيخ نسطوري «مسيحي»

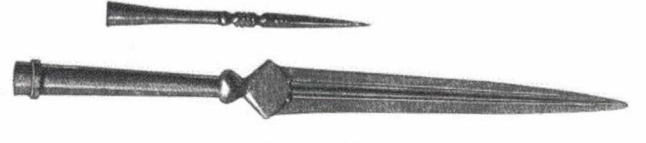
تركمان (تصوير أوبنهايم)



السبيل «غليون البدوي»



حلي لنساء البدو



رؤوس الحراب عند البدو

سلاح من أسلحة البدو

حذاء البدوي

نساء التركمان اثناء اعداد البرغل

(تصوير أوبنهايم)



وسم الجمل